**الفصل الأول**

**تحت السطح**

كانت المياه زرقاء داكنة، تكاد تميل إلى السواد، حين انزلقت داليا من منفذ الهواء الخارجي للوحدة البحرية «خوفو».

الضغط أحاط بجسدها كقبضة ودودة في آنٍ واحد. أحسّت بالبرودة المعتادة تتسلل عبر بذلة الغطس الرقيقة، ثم اختفت تماماً حين شغّلت جهاز التدفئة الداخلي. تنفّست بعمق من الأسطوانة المدمجة، وسمعت صوت فقاعات الأكسجين الصغيرة ترتفع فوق رأسها كهمس متقطع.

تحت سطح البحر الأحمر، على بعد كيلومترات قليلة من شاطئ الغردقة، كان العالم مختلفاً تماماً.

سبحت ببطء أولاً، ثم زادت سرعتها. قدماها المزعنفتان تدفعانها إلى الأمام بقوة منتظمة، وجسدها النحيل يشق الماء كسمكة ولدت هنا. كانت تعرف كل متر من هذا القاع: الصخور الحادة التي تنمو عليها الطحالب الخضراء الداكنة، الشعب المرجانية التي تشبه غابات متحجرة، والرمال الناعمة التي ترتفع أحياناً في سحب خفيفة إذا مرّت فوقها بسرعة.

Downstream، في الجهة الغربية، امتد السور السلكي المكهرَب. ارتفاعه خمسة أمتار، يفصل منطقة التوليد عن بقية القاع. خلفه، كانت مئات الدرافيل الفائقة تتحرك ببطء.

رأتها من بعيد أولاً: أجساماً رمادية كبيرة، طول الواحد منها يقترب من خمسة أمتار، أطراف متعددة تنتهي بمخالب قصيرة، وعيون سوداء لامعة تبدو أكبر مما ينبغي لحيوان بحري. كانت تسير على القاع أكثر مما تسبح، تتغذى على الطحالب الكثيفة التي زرعها العلماء خصيصاً لها.

داليا توقفت فوق السور، ممسكة بأحد الأعمدة المعدنية، ونظرت إليهم طويلاً.

منذ أن وعَت، كانت هذه الدرافيل جزءاً من حياتها. رأتها تولد، ورأتها تكبر، ورأتها تُساق بعيداً كل بضعة أشهر. لم تكن تتذكر اليوم الذي فهمت فيه الحقيقة كاملة، لكنها تتذكر الشعور: شيء بارد يستقر في صدرها ولا يغادر أبداً.

ضغطت على زر الاتصال في معصمه.

ـ أبي؟

جاء صوت الدكتور ماجد بعد ثوانٍ، واضحاً رغم التشويش الخفيف:

ـ أين أنتِ يا داليا؟

ـ فوق منطقة التوليد. العدد ما زال حوالي خمسمائة.

صمت قصير، ثم قال:

ـ حسناً. ارجعي قبل الغروب. لدينا اجتماع في السابعة.

قطعت الاتصال دون أن تجيب.

عادت تسبح باتجاه المجمع. القبة البلورية الهائلة ظهرت تدريجياً من الضباب المائي، تتلألأ بأضوائها الداخلية الصفراء والخضراء. كانت تبدو من بعيد كمدينة غارقة، أو كحلم قديم تحقق في المكان الخطأ.

دخلت من منفذ الهواء الرئيسي، وانتظرت حتى انخفض الضغط، ثم خلعت الخوذة وبذلة الغطس. شعرها الأسود القصير كان ملتصقاً بجبهتها، ووجهها شاحباً من البرد رغم التدفئة.

في الممر المعدني الطويل، قابلت اثنين من الفنيين يحملان صناديق معدات. ألقيا عليها نظرة سريعة ثم تابعا طريقهما. الجميع هنا يعرفون داليا. ابنة المدير العلمي. الفتاة التي ولدت تقريباً تحت الماء، والتي تفضل الحديث مع الدرافيل على الحديث مع البشر.

وصلت إلى غرفتها الصغيرة في الجناح السكني. النافذة الزجاجية السميكة تطل مباشرة على القاع. جلست على السرير، وسحبت ركبتيها إلى صدرها، ونظرت إلى الظلام الخارجي.

في الخارج، كانت الأضواء الخافتة للمجمع ترسم دوائر باهتة على الرمال. وأبعد من ذلك، خلف السور، كانت الدرافيل الفائقة تتحرك في صمت.

داليا أغمضت عينيها.

كانت تعرف أن الزيارة القادمة لمندوبي مجلس الغذاء العالمي بعد أسبوعين فقط. وأن العدد الذي سيأخذونه هذه المرة سيكون أكبر من المعتاد. وأن أباها، رغم كل محاولاته لإخفاء الأمر، يخطط لشيء ما منذ شهور.

شيء لم يخبرها به بعد.

فتحت عينيها فجأة حين سمعت صوتاً خافتاً يأتي من جهاز الاتصال الداخلي:

ـ داليا مراد... مطلوبٌ حضورك فوراً إلى غرفة العمليات.

نهضت.

البحر خلف الزجاج بدا أكثر ظلمة مما كان قبل دقائق.

وكأنها كانت تنتظر.

**الفصل الثاني**

**الأب وابنته**

كانت غرفة العمليات في الطابق الثالث من المجمع، خلف باب معدني سميك يحمل شارة «دخول مقيّد».

داليا وضعت بصمتها على اللوحة، وسمعت صوت القفل يدور ببطء. دخلت.

الغرفة واسعة، جدرانها مغطاة بشاشات تعرض خرائط ثلاثية الأبعاد للقاع، ومخططات وراثية، ورسوم بيانية تتغير باستمرار. في الوسط، خلف مكتب زجاجي كبير، كان الدكتور ماجد مراد جالساً.

شعره الرمادي القصير مرتب بعناية، ونظارته الطبية معلّقة على صدره. بدا متعباً أكثر من المعتاد، لكن عينيه الزرقاوين اللتين ورثتهما داليا كانت لا تزال حادّتين.

رفع رأسه حين دخلت.

ـ أجلسي.

جلست على الكرسي المقابل. الصمت امتد ثوانٍ قليلة قبل أن يتكلم.

ـ رأيتِ العدد اليوم؟

ـ خمسمائة وسبعة وعشرون. زادوا اثني عشر منذ الأسبوع الماضي.

أومأ برأسه.

ـ مجلس الغذاء العالمي يطلب ثلاثمائة في الشحنة القادمة.

داليا شعرت بشيء ينقبض في صدرها.

ـ ثلاثمائة؟ هذا أكثر من نصف القطيع.

ـ أعرف.

ـ وهل وافقت؟

ماجد نظر إليها طويلاً، ثم أزال نظارته ومسحها بمنديل.

ـ ليس لديّ خيار، داليا. العالم يحتاج إلى البروتين. المجاعة في شرق آسيا تزداد سوءاً، وفي أفريقيا الجنوبية مات ثلاثة ملايين في الستة أشهر الماضية. نحن ننتج الغذاء الأرخص والأسرع.

ـ الغذاء؟

نطقت الكلمة كأنها تذوق مرارتها.

ماجد تنهّد.

ـ أعرف ما تفكرين فيه. أعرف كيف ترينهم. لكنهم ليسوا بشراً، يا ابنتي. هم كائنات معدّلة وراثياً. صُمّموا لهذا الغرض.

ـ صُمّموا ليُقتلوا.

ـ صُمّموا ليُطعموا.

الصمت عاد أثقل هذه المرة. داليا نظرت إلى الشاشات خلف أبيها. واحدة منها تعرض صورة حيّة لمنطقة التوليد: الدرافيل تتحرك ببطء، بعضها يقترب من السور، كأنها تنتظر شيئاً.

ـ لماذا استدعيتني؟

ماجد أغلق الصورة بلمسة إصبع.

ـ لأنني أريدكِ أن تكوني حاضرة في الاجتماع مع المندوبين بعد أسبوعين. أريدكِ أن تري كيف تسير الأمور من الجانب الآخر.

ـ لا أريد أن أرى.

ـ يجب أن تري. أنتِ الوريثة الوحيدة لهذا المكان. يوماً ما سيكون المجمع تحت مسؤوليتك.

ضحكت داليا ضحكة قصيرة بلا فرح.

ـ الوريثة؟ أبي، أنا لا أريد أن أرث مذبحاً.

ماجد وقف فجأة ودار حول المكتب. توقف أمام النافذة الزجاجية التي تطل على القاع المظلم.

ـ هناك أشياء لا تعرفينها بعد. أشياء عملتُ عليها منذ سنوات.

التفت إليها.

ـ تجارب... خاصة.

داليا شعرت بقلبها يتسارع.

ـ أي نوع من التجارب؟

ـ ليس الآن.

ـ أبي...

ـ قلتُ ليس الآن.

صوته كان هادئاً، لكنه لم يكن يقبل النقاش. عاد إلى مكتبه وجلس.

ـ بعد الاجتماع. بعد أن يأخذوا ما يريدون. سأريكِ كل شيء.

داليا نظرت إليه. الرجل الذي ربّاها وحده بعد موت أمها، الذي علّمها السباحة قبل أن تتعلم المشي، الذي كان يقرأ لها قصص البحر كل ليلة حين كانت طفلة.

الآن بدا غريباً عنها.

ـ هل أنتَ بخير؟ سألته فجأة.

ابتسم ابتسامة صغيرة متعبة.

ـ أنا بخير طالما أنكِ هنا.

نهضت.

ـ سأذهب.

عند الباب، توقفت ولم تلتفت.

ـ أبي... الدرافيل ليست مجرد طعام. أنتَ تعرف ذلك.

لم يجب.

خرجت وأغلقت الباب خلفها. في الممر، استندت لحظة إلى الجدار المعدني البارد.

من خلف الباب المغلق، سمعت صوت أبيها يهمس لنفسه، أو ربما لجهاز تسجيل:

ـ قريباً... قريباً جداً.

**الفصل الثالث**

**القادمون من السطح**

وصلت الغواصة في الساعة التاسعة صباحاً.

كانت كبيرة، رمادية اللون، تحمل شعار مجلس الغذاء العالمي على جانبيها: سنبلة قمح ملتفة حول كرة أرضية. نزلت ببطء عبر عمود المياه، وأضاءت كشافاتها القوية القاع كأنما تفتش عن شيء مخفي.

داليا وقفت خلف النافذة السميكة في غرفة المراقبة، تشاهد.

إلى جانبها وقف الدكتور ماجد، صامتاً، ويده خلف ظهره. الفنيون يتحركون في الخلفية، يجهّزون منصات التحميل والمعدات.

ـ اثنان وعشرون رجلاً، قال أحد الفنيين وهو يقرأ الشاشة. ـ ومعهم معدات القطع الثقيلة.

ماجد لم يعلّق.

الغواصة استقرت على منصة الرسو الخارجية. فتحت البوابات، وخرج الرجال واحداً تلو الآخر. كانوا يرتدون بذلات عمل برتقالية سميكة، خوذات شفافة، وأحذية معدنية مغناطيسية تثبتهم على الأرض. بعضهم يحمل بنادق صعق كهربائي طويلة، والبعض الآخر يسحب عربات معدنية فارغة.

في مقدمتهم سار رجل قصير القامة، أصلع، ذو وجه مستدير وعينين صغيرتين. كان يحمل لوحة إلكترونية ويتحدث بصوت عالٍ إلى من حوله.

ـ هذا هو المسؤول عن الشحنة، همس أحد الفنيين لداليا. ـ اسمه كريم عبد القادر. يأتي كل ثلاثة أشهر منذ أربع سنوات.

داليا لم تكن قد رأته من قبل عن قرب. كانت تتجنبه دائماً.

الرجال توجهوا مباشرة إلى منطقة التوليد. فتحت البوابات الإلكترونية في السور، واندفعوا داخل الحظيرة الكبيرة.

من غرفة المراقبة، كانت الصورة واضحة تماماً على الشاشات.

الدرافيل الفائقة شعرت بالخطر فوراً. بدأت تتحرك بسرعة أكبر، تصدر أصواتاً عالية تشبه الصراخ المكتوم. بعضها حاول الهرب نحو الزوايا البعيدة، لكن الرجال كانوا منظمين.

استخدموا بنادق الصعق.

الضوء الأزرق يومض، والجسد الرمادي الكبير يسقط على الرمال مرتجفاً. ثم يأتي السكين الكهربائي.

داليا أغلقت عينيها في اللحظة الأولى، ثم أجبرتها على الفتح.

كانت تريد أن ترى.

الرجل الأصلع (كريم) كان يقف جانباً، يسجّل الأرقام على لوحته. كل دزينة تسقط، يرفع إصبعه ويعدّ. لم يكن ينظر إلى الوجوه، ولا إلى العيون السوداء الكبيرة التي تظل مفتوحة حتى بعد أن يتوقف الجسد عن الحركة.

ـ مئة... مئة وعشرة... مئة وعشرون...

صوته الجاف يصل إلى غرفة المراقبة عبر المكبرات.

ماجد ظل واقفاً بلا حركة. داليا نظرت إليه من الجانب. وجهه كان حجراً، لكن عرقه الخفيف على جبهته كان يخونه.

بعد ساعة ونصف، امتلأت العربات.

ثلاثمائة جثة رمادية مكدسة فوق بعضها، تسيل منها سوائل شفافة على أرضية المنصة. الرجال يغسلون أدواتهم بماء البحر، ويضحكون أحياناً، ويتحدثون عن مكافآتهم القادمة.

كريم صعد إلى غرفة المراقبة بعد أن أُغلقت البوابات.

دخل دون أن يستأذن، ومدّ يده إلى ماجد.

ـ دكتور مراد. الشحنة ممتازة هذه المرة. الحجم أكبر، والدهون أعلى نسبة.

ماجد صافحه بسرعة.

ـ كما طلبتم.

كريم نظر إلى داليا للمرة الأولى. ابتسم ابتسامة عريضة تظهر أسنانه الصفراء.

ـ وهذه يجب أن تكون الابنة. سمعتُ الكثير عنكِ. يقال إنكِ تسبحين معهم كأنكِ واحدة منهم.

داليا لم تمد يدها.

كريم ضحك.

ـ لا بأس. بعضهم يرتبط عاطفياً. خاصة في البداية. لكن العمل عمل، أليس كذلك؟

التفت إلى ماجد.

ـ الشحنة التالية بعد ستة أسابيع. نريد أربعمائة هذه المرة. الطلب يرتفع في أوروبا.

ماجد هز رأسه ببطء.

ـ سنرى.

كريم غادر وهو يصفر لحناً خفيفاً.

حين أغلق الباب خلفه، جلست داليا على أقرب كرسي. يدها كانت ترتجف قليلاً.

ماجد وضع يده على كتفها للحظة، ثم سحبها.

ـ انتهت.

ـ لا، قالت بصوت خافت. ـ لم تنتهِ.

نظرت إلى الشاشة التي تعرض الحظيرة الآن شبه فارغة. الرمال مبللة، وبعض البقع الداكنة لم تُغسل بعد.

ـ أبي...

ـ أعرف.

ـ كيف تحتمل هذا كل مرة؟

ماجد نظر إلى النافذة المظلمة.

ـ لأنني أعرف أن هناك طريقة أخرى. طريقة لن يفهموها أبداً.

التفت إليها، وعيناه بدتا مختلفتين فجأة.

ـ بعد أن يرحلوا... سأريكِ.

**الفصل الرابع**

**ذاكرة الماء**

كانت في السابعة حين لمست أحدهم لأول مرة.

في ذلك الوقت، لم تكن تُسمى «درافيل فائقة». كان الجميع في المجمع يسمّونها ببساطة «القطعان». وكانت داليا الصغيرة تظنها حيوانات أليفة كبيرة، مثل الكلاب التي رأتها في الصور القديمة على الشاشات.

أبوها اصطحبها في ذلك اليوم إلى منطقة التوليد. كانت بذلة الغطس أكبر منها بقليل، والخوذة تضغط على أذنيها. تمسّكت بيده بقوة وهي تنزل السلم المعدني إلى القاع.

ـ لا تخافي، قال ماجد. ـ هم هادئون.

اقتربا من مجموعة صغيرة كانت ترعى الطحالب. واحد منها رفع رأسه ونظر إليهما. عيناه السوداوان الكبيرتان لمعتا في ضوء الكشاف.

داليا مدّت يدها الصغيرة.

الجلد كان ناعماً، بارداً، ومغطى بطبقة رقيقة من المخاط الشفاف. الحيوان لم يتحرك. تركها تلمسه، ثم أصدر صوتاً خفيفاً يشبه النقر السريع.

ضحكت.

ـ إنه يكلمني!

ماجد ابتسم.

ـ ربما.

منذ ذلك اليوم، صارت تزورهم كل صباح قبل أن تذهب إلى دروسها. كانت تسبح بينهم، تلامس ظهورهم، وتحاول تقليد أصواتهم. بعضهم كان يقترب منها أكثر من غيره. واحد بالذات، له ندبة بيضاء صغيرة فوق عينه اليسرى، صار يلتقيها عند السور كلما جاءت.

سمّته «ندى».

لم تكن تعرف لماذا اختارت هذا الاسم. ربما لأن جلده كان يلمع كقطرات الماء حين يتحرك تحت الأضواء.

في عامها التاسع، حدث الشيء الذي غيّر كل شيء.

كانت مختبئة خلف أحد خزانات الأكسجين في منصة التحميل، تلعب لعبة الاختباء مع فنيّين صغيرين، حين سمعت أصوات الرجال والأدوات.

رأى كريم عبد القادر للمرة الأولى ذلك اليوم. كان أصلع حتى في ذلك الوقت، وصوته جافاً.

ـ نبدأ من اليسار. خمسون رأساً فقط هذه المرة.

ثم جاء الصوت الذي لم تنسه أبداً: صوت الصعق الكهربائي، ثم الصوت الرطب للسكين وهو يشق الجلد.

داليا وضعت يدها على فمها كي لا تصرخ.

رأت ندى.

كان من بين المجموعة التي سُحبت. حاول المقاومة، ضرب الماء بذيله بقوة، لكنهم صعقوه مرتين. سقط على الرمال، وعيناه ما زالتا مفتوحتين.

أحد الرجال ضحك وقال:

ـ هذا الكبير عنيد. لحمه هيكون طري بعدين.

داليا ظلت مختبئة حتى غادر الجميع.

حين خرجت، كانت المياه حولها حمراء خفيفة. اقتربت من المكان الذي سقط فيه ندى. لم يبقَ منه شيء سوى بقعة داكنة وبعض القشور.

في تلك الليلة، انتظرت أباها في غرفته.

كان جالساً أمام الشاشات، يراجع تقارير. حين رآها واقفة عند الباب، عرف فوراً.

ـ رأيتِ.

لم تكن سؤالاً.

جلست على الأرض أمامه، ودفنت وجهها في ركبتيها. بكت بصمت أولاً، ثم بصوت مسموع.

ماجد نزل إليها، واحتضنها.

ـ هم ليسوا مثلنا، داليا. هم... طعام. صُنعوا لهذا.

ـ ندى كان صديقي.

ـ أعرف.

ـ لماذا تقتلونهم؟

ـ لأن العالم يموت من الجوع. ولأننا نحن من يمنع ذلك.

رفعت رأسها. وجهها كان مبللاً.

ـ هل ستقتلني أنا أيضاً لو احتجتم إلى طعام؟

ماجد أمسك بكتفيها بقوة.

ـ لا تقولي هذا أبداً. أنتِ ابنتي. أنتِ كل ما تبقى لي.

لكن الجملة ظلّت عالقة في حلقها سنوات طويلة.

بعد ذلك اليوم، توقفت عن تسمية أيٍّ منهم.

كانت ما تزال تزورهم، وما تزال تسبح بينهم، لكنها لم تعد تمد يدها كما كانت. كانت تنظر فقط.

وفي كل مرة كانت ترى رجالاً يرتدون البرتقالي قادمين من السطح، كانت تتذكر صوت السكين، وعيني ندى المفتوحتين، والسؤال الذي لم يجرؤ أبوها على الإجابة عنه حقاً:

إلى أي مدى يمكن أن يصل الإنسان في تعريفه لما هو «طعام»؟

**الفصل الخامس**

**الهمس في المختبر**

بعد ثلاثة أيام من رحيل الغواصة، استدعى ماجد ابنته في منتصف الليل.

الجهاز الداخلي رنّ بصوت خافت في غرفتها. فتحت عينيها فوراً. كانت مستيقظة في الحقيقة منذ ساعة، تحدّق في الظلام خارج النافذة.

ـ تعالي إلى الجناح الغربي. الباب الخلفي. ولا تخبري أحداً.

الصوت كان هادئاً، لكنه مختلف. فيه شيء لم تسمعه من قبل.

ارتدت بذلة خفيفة وخرجت. الممرات في هذه الساعة شبه فارغة. الحراس الليليون يمرّون كل عشرين دقيقة، وكانت تعرف مواعيدهم عن ظهر قلب.

الجناح الغربي كان مغلقاً منذ سنوات، أو هذا ما كان الجميع يعتقده. اللافتة القديمة ما زالت معلّقة: «منطقة تجارب – دخول ممنوع». لكن القفل الإلكتروني فتح لبصمتها هذه المرة.

نزلت درجاً معدنياً ضيقاً، ثم ممراً آخر أطول، حتى وصلت إلى باب ثانٍ سميك.

ماجد كان ينتظرها خلفه.

ـ ادخلي بسرعة.

الغرفة كانت أكبر مما توقعت. إضاءة زرقاء خافتة، خزانات زجاجية ضخمة على الجانبين، وأجهزة لم ترَ مثلها من قبل. في الوسط، حوض دائري واسع، مياهه تتحرك ببطء.

وهناك... رأتهم.

عشرة فقط.

أكبر حجماً من القطيع العادي، جلودهم أميل إلى الرمادي الداكن المائل للأسود. عيونهم ليست سوداء تماماً، بل تحمل لمعة رمادية فضية. كانوا يسبحون في دوائر بطيئة، كأنها حركة محسوبة.

داليا توقفت عند حافة الحوض.

ـ ما هؤلاء؟

ماجد وقف إلى جانبها.

ـ الجيل التالي. أو... الجيل الأخير ربما.

اقترب أحدهم من الزجاج الشفاف. نظر إليها مباشرة. داليا شعرت بقشعريرة تسري في ظهرها. النظرة لم تكن نظرة حيوان.

ـ عدّلتُ في الشيفرة الوراثية، قال ماجد بصوت منخفض. ـ رفعتُ مستوى الذكاء، حسّنتُ القدرة على التنفس خارج الماء لفترات أطول، وأضفتُ طبقة من العدوانية المحسوبة.

ـ عدوانية؟

ـ نعم.

صمت قليلاً، ثم تابع:

ـ القطيع العادي يُساق إلى الموت بهدوء. هؤلاء... لن يُساقوا.

داليا التفتت إليه.

ـ ماذا تخطط أن تفعل؟

ماجد لم ينظر إليها. كان يراقب الدرافيل وهي تتحرك.

ـ منذ اثني عشر عاماً وأنا أرى الشيء نفسه يتكرر. يأتون، يأخذون، يضحكون، ويرحلون. والعالم يأكل. وأنا... أصمت.

ضغط يده على حافة الحوض.

ـ لم أعد قادراً على الصمت.

ـ أبي... هذه كائنات حية. أنتَ صنعتها أذكى، فكيف تستخدمها للانتقام؟

نظر إليها أخيراً.

ـ الانتقام؟ ربما. أو العدالة. سمِّيه ما شئت. هم سيأخذون هذه المرة ما يستحقونه.

اقترب أحد الدرافيل أكثر، حتى كاد أنفُه يلمس الزجاج أمام وجه داليا. أصدر صوتاً متقطعاً، سريعاً، مختلفاً عن أصوات القطيع العادي.

ماجد ابتسم ابتسامة صغيرة حزينة.

ـ هم يفهمون أكثر مما تظنين. راقبتُهم شهوراً. يتعلمون. يتذكرون. وأعتقد... أنهم يعرفون ما حدث لإخوانهم في الخارج.

داليا شعرت بقلبها يثقل.

ـ هل أخبرتهم؟

ـ لم أحتج أن أخبرهم. هم يعرفون.

Sequela

جلست داليا على أقرب مقعد معدني. رأسها كان يدور.

ـ إذا فعلتَ ما أظنك تخطط له... فلن يكون هناك عودة. المجلس سيدمّر المجمع. سيدمّرنا.

ماجد جلس إلى جانبها.

ـ أعرف. لذلك أنتظر اللحظة المناسبة. الشحنة القادمة ستكون كبيرة. أكبر من المعتاد. وحين يأتون... سيكون هؤلاء العشرة جاهزين.

أمسك يدها.

ـ أنا لا أطلب منكِ أن تساعديني. فقط... لا تقفي في طريقي.

داليا نظرت إلى الحوض. الدرافيل العشرة كانت الآن متوقفة كلها، تنظر في اتجاهها. كأنها تنتظر جواباً.

همست:

ـ هل هم... يكرهوننا؟

ماجد أجاب بعد صمت طويل:

ـ لا أعرف إن كانوا يكرهون. لكنهم لم يعودوا يقبلون.

في تلك اللحظة، أصدر أحدهم صوتاً عالياً حاداً، تردد صداه في الغرفة كلها.

كان الصوت يشبه صرخة.

أو وعد.

**الفصل السادس**

**أصوات من الأعلى**

الاجتماع عُقد في قاعة المؤتمرات الرئيسية، الساعة الحادية عشرة صباحاً بتوقيت المجمع.

الشاشة الكبيرة على الجدار الأمامي أضاءت أولاً بشعار مجلس الغذاء العالمي، ثم ظهر وجه امرأة في الخمسين من عمرها، شعرها القصير رمادي وأنيق، وعيناها باردتان خلف نظارة رفيعة. خلفها كانت نافذة تطل على مدينة أوروبية ممطرة.

ـ الدكتور ماجد مراد، قالت بصوت واضح ومهني. ـ السيدة داليا مراد. شكراً لحضوركما.

ماجد جلس في مقدمة الطاولة. داليا إلى جانبه. في الخلف، وقف ثلاثة من كبار الفنيين ومسؤولة الأمن في المجمع.

ـ أنا الدكتورة إلينور فايس، المديرة التنفيذية لقسم الإمدادات البروتينية في المجلس. سأتحدث اليوم مباشرة لأن الوضع لم يعد يحتمل الوسطاء.

فتحت ملفاً إلكترونياً على الشاشة الجانبية. ظهرت خرائط حمراء و صفراء تغطي قارات بأكملها.

ـ المجاعة في جنوب شرق آسيا دخلت مرحلتها الحرجة. الهند وبنغلاديش فقدتا أربعين في المئة من إنتاج الأرز بسبب الجفاف المتواصل. في أفريقيا الوسطى، الأرقام اليومية للوفيات تجاوزت الاثني عشر ألفاً. أوروبا نفسها بدأت تقنّن اللحوم الصناعية.

توقفت قليلاً، ثم نظرت مباشرة إلى الكاميرا.

ـ مجمعكم في البحر الأحمر ينتج حالياً ثمانية في المئة من البروتين الحيواني الرخيص المتداول في الأسواق العالمية. نحن نحتاج إلى رفع هذه النسبة إلى اثني عشر في المئة خلال الستة أشهر القادمة.

ماجد قال بهدوء:

ـ هذا يعني مضاعفة الإنتاج تقريباً. البنية التحتية الحالية لا تتحمل.

ـ ابنوا المزيد. موّلوا التوسعة. المجلس مستعد لتغطية التكاليف.

ـ التوسعة تحتاج وقتاً. والدرافيل تحتاج دورة نمو كاملة.

إلينور ابتسمت ابتسامة رقيقة بلا دفء.

ـ الدكتور مراد، نحن لا نطلب المستحيل. نطلب ما هو ضروري. الشحنة القادمة بعد خمسة أسابيع يجب أن تكون أربعمائة وخمسين رأساً على الأقل. والشحنة التي تليها ستمائة.

داليا شعرت بالكلمة «رأساً» تضرب أذنها كصفعة.

ـ وأنتم تسمّونهم رؤوساً، قالت فجأة.

الجميع التفتوا إليها. ماجد وضع يده على ذراعها تحت الطاولة، لكن داليا لم تتوقف.

ـ ليسوا أرقاماً. ليسوا وحدات إنتاج. هم كائنات تشعر.

إلينور نظرت إليها لحظة طويلة، ثم قالت بهدوء أشد:

ـ الآنسة مراد، الاحترام واجب للعلم والعواطف. لكن العلم يقول إن هذه الكائنات صُمّمت خصيصاً لهذا الغرض. عواطفكِ مفهومة، لكنها لا تُطعم أحداً.

في الخلفية، سُمع صوت شخص آخر ينضم إلى المكالمة. ظهرت نافذة صغيرة على الشاشة: رجل في الأربعين، يرتدي معطفاً أبيض، خلفه مختبر.

ـ إذا سمحتِ يا دكتورة فايس... أنا الدكتور سامر الخطيب، من وحدة الأخلاقيات البيولوجية في المجلس.

إلينور أشارت له أن يتكلم.

سامر نظر إلى الكاميرا، وصوته كان أكثر هدوءاً.

ـ أنا أتابع تقارير مجمع البيروني منذ سنتين. هناك ملاحظات متكررة عن ارتفاع مؤشرات التوتر لدى القطعان قبل الشحنات. كما أن معدل التشوهات الجينية في الجيل الأخير أعلى من المعتاد. أقترح تأجيل الزيادة الكبيرة حتى نراجع البروتوكولات.

إلينور قاطعته:

ـ اقتراحك مسجّل، دكتور الخطيب. لكنه مرفوض في الوقت الحالي. الأولوية للبقاء لا للمراجعات.

سامر صمت، لكن عينيه بقيتا على داليا لثانية أطول من اللازم، كأنه يريد أن يقول شيئاً آخر.

بعد انتهاء المكالمة، ظلت الشاشة سوداء.

ماجد نهض ببطء.

ـ أربعمائة وخمسون، كرر لنفسه. ـ ثم ستمائة.

داليا قالت:

ـ لن يستطيعوا. القطيع الحالي لن يتحمل.

ـ أعرف.

ـ إذن ماذا ستفعل؟

ماجد نظر إلى الباب، ثم إلى الفنيين الذين كانوا ينصرفون.

ـ سأفعل ما يجب.

في الممر، بعد أن انصرف الجميع، اقتربت منه مسؤولة الأمن، امرأة في نهاية الثلاثينيات اسمها ليلى.

ـ دكتور... الاتصالات الواردة من المجلس زادت ثلاثة أضعاف هذا الشهر. وهم يراقبون استهلاك الطاقة في الجناح الغربي.

ماجد توقف.

ـ هل يعرفون شيئاً؟

ـ ليس بعد. لكنهم يقتربون.

ليلى نظرت إلى داليا ثم عادت إليه.

ـ إذا كان ما تخفيه مهماً... فالوقت ضيق.

**الفصل السابع**

**ظلال في القاع**

في الليلة التالية، عادت داليا إلى الجناح الغربي وحدها.

لم يطلب منها أبوها ذلك. لم يمنعها أيضاً. القفل فتح لبصمتها كأن المكان صار يعترف بها.

الإضاءة الزرقاء الخافتة كانت على حالها. الدرافيل العشرة تسبح في دوائر بطيئة، أو تتوقف أحياناً في وسط الحوض كأنها تفكر.

اقتربت من الحافة.

هذه المرة لم يصدروا أصواتاً عالية. واحد منهم فقط، الأكبر حجماً، ذو البقعة الفضية الصغيرة خلف الزعنفة اليسرى، سبح نحوها ببطء. توقف على بُعد ذراع تقريباً من الزجاج.

داليا جلست على الأرض، ووضعت كفيها على السطح البارد.

ـ هل تسمعني؟ همست.

الحيوان حرك رأسه حركة خفيفة، كأنه يميلها. العين الفضية اللامعة ثبتت عليها.

كانت هناك لحظة طويلة لا يتحرك فيها شيء. حتى فقاعات الأكسجين في الحوض بدت أبطأ.

ثم رفع الدرافيل زعنفته الصدرية اليمنى ولامس الزجاج في الموضع نفسه الذي كانت يدها عليه.

داليا شعرت بقشعريرة تسري من أصابعها إلى كتفيها.

لم يكن لمساً عشوائياً. كان متعمداً.

ـ أنتَ تعرف، قالت بصوت بالكاد مسموع. ـ تعرف ما يحدث في الخارج.

الدرافيل أصدر صوتاً منخفضاً متقطعاً، يشبه الهمس أكثر مما يشبه النداء. تردد الصوت داخل الحوض ثم مات.

بقية التسعة اقتربوا تدريجياً. شكّلوا نصف دائرة خلف الأول، كأنهم يستمعون.

داليا أغلقت عينيها لحظة. تذكرت ندى. تذكرت الدم الخفيف في الماء. تذكرت صوت السكين.

حين فتحتها، كان الدرافيل الأول ما زال ينظر إليها.

هذه المرة بدا النظر مختلفاً.

لم يكن فضولاً حيوانياً. ولا خوفاً. ولا حتى غضباً واضحاً.

كان شيئاً أعمق. شيئاً يشبه الفهم. أو الانتظار.

كأنما يقول لها بلا كلمات:

«نحن نعرف. ونحن جاهزون. والسؤال هو: هل أنتِ جاهزة؟»

داليا سحبت يدها ببطء.

قلبها كان يضرب بقوة كافية لتؤلمها.

همست، أكثر لنفسها هذه المرة:

ـ أنا لا أعرف إن كنتُ قادرة على هذا.

الدرافيل حرك رأسه مرة أخرى، ثم ابتعد قليلاً، وعاد إلى وسط الحوض. الباقون تبعوه في صمت.

لكن قبل أن يختفي في الظل الأزرق، التفت للحظة أخيرة.

ونظر إليها.

تلك النظرة ظلت عالقة في عيني داليا حتى بعد أن أغلقت باب الجناح خلفها، وحتى بعد أن عادت إلى غرفتها، وحتى بعد أن أطفأت النور.

في الظلام، كانت ترى العين الفضية.

وتسمع السؤال الذي لم يُقل.

**الفصل الثامن**

**العدّ التنازلي**

وصلت الرسالة الرسمية في الصباح الباكر.

ظهرت على كل الشاشات الرئيسية في المجمع في الوقت نفسه:

**إشعار عاجل من مجلس الغذاء العالمي**

الشحنة القادمة: بعد أحد عشر يوماً.

العدد المطلوب: أربعمائة وثمانون رأساً.

فريق الاستلام: ثلاثون عنصراً + معدات دعم إضافية.

أي تأخير سيُعتبر إخلالاً بالاتفاقية الدولية للإمدادات الطارئة.

ماجد قرأ الإشعار واقفاً في غرفة العمليات. لم يجلس. لم يعلّق. فقط أدار ظهره للشاشات ونظر إلى الخريطة الثلاثية الأبعاد للقاع.

داليا كانت خلفه.

ـ أحد عشر يوماً، قالت.

ـ أعرف.

ـ أربعمائة وثمانون. القطيع الحالي بالكاد يصل إلى ستمائة بعد الولادات الأخيرة.

ـ أعرف.

التفت إليها. وجهه بدا أكبر سناً فجأة، كأن السنوات الثقيلة ظهرت كلها دفعة واحدة.

ـ الليلة أنقل العشرة إلى الحظيرة الخارجية. في المكان المحدد.

داليا شعرت ببرودة تسري في يديها.

ـ إذن قررت.

ـ لم يعد هناك وقت للتردد.

في الساعات التالية، تحرك المجمع بطريقة مختلفة. الفنيون يُراجعون جداول التغذية والوزن. مسؤولة الأمن ليلى تضاعف دوريات المراقبة حول الجناح الغربي دون أن تشرح السبب. الرسائل المشفرة بين ماجد وبعض الأجهزة القديمة في المختبر السري تزداد.

داليا قضت النهار بين غرفتها والممرات. لم تعد قادرة على السباحة في المنطقة العامة. كانت ترى الدرافيل العادية تتحرك في الحظيرة الكبيرة، وتخيل كيف ستبدو المكان بعد أحد عشر يوماً.

في المساء، نزلت مرة أخرى إلى الجناح الغربي.

العشرة كانوا أكثر هدوءاً من المعتاد. يسبحون في تشكيل ضيق، كأنهم يتدربون على شيء لا يراه أحد غيرهم. الدرافيل ذو البقعة الفضية رفع رأسه حين دخلت، ونظر إليها نظرة قصيرة ثم عاد إلى مجموعته.

ماجد جاء بعدها بنصف ساعة.

حمل في يده جهازاً صغيراً أسود، بحجم راحة اليد.

ـ هذا جهاز التحكم الثانوي، قال وهو يريها إياه. ـ يعمل على تردد خاص. يمكنني من خلاله توجيههم أو... إطلاقهم.

ـ إطلاقهم؟

ـ نعم.

وضع الجهاز على الطاولة.

ـ بعد أن يدخل فريق المجلس ويبدأوا العمل... سأفتح البوابات الداخلية. هم سيتولون الباقي.

داليا نظرت إلى الجهاز، ثم إلى أبيها.

ـ هل فكرت فيما سيحدث بعد ذلك؟ للمجمع؟ لنا؟

ماجد أجاب بصوت منخفض:

ـ فكرت في كل شيء منذ سنوات. المجمع كان سينتهي في يوم من الأيام بهذا الشكل أو بآخر. الأفضل أن ينتهي ونحن نختار كيف.

اقترب منها.

ـ أنتِ لستِ مضطرة أن تكوني هنا حين يحدث. يمكنني أن أرتب لكِ غواصة صغيرة إلى الشاطئ قبل وصولهم.

داليا هزت رأسها.

ـ لن أتركك. ولن أتركهم.

ماجد نظر إليها طويلاً، ثم أومأ برأسه مرة واحدة فقط.

ـ إذن نحن متفقان.

في تلك الليلة، جلست داليا في غرفتها أمام النافذة. القاع كان مظلماً إلا من الأضواء الخافتة للمجمع. خلف السور البعيد، كانت الحظيرة الكبيرة تبدو هادئة.

أحصت الأيام.

أحد عشر.

عشرة.

تسعة...

وضعت يدها على الزجاج البارد.

في مكان ما تحت الماء، في الحوض السري، كانت عشرة كائنات تتحرك في صمت.

تنتظر.

مثلها تماماً.

**الفصل التاسع**

**الأيام الأخيرة**

في اليوم السابع قبل الوصول، بدأ الصمت يتغير داخل المجمع.

لم يعد الصمت المعتاد الهادئ الذي اعتاد عليه الجميع تحت سطح البحر. صار صمتاً مشحوناً، كأن الجدران المعدنية نفسها تنتظر شيئاً.

داليا لاحظت ذلك أولاً في عيون الفنيين. كانوا يتجنبون النظر المباشر إليها وإلى أبيها. الأحاديث في غرفة الطعام صارت قصيرة، والضحكات نادرة. أحدهم، فني شاب يُدعى ياسر، توقف عن تحيتها تماماً بعد أن كان يبتسم لها كل صباح.

ماجد كان يقضي معظم وقته في الجناح الغربي أو في غرفة العمليات. ينام قليلاً، يأكل أقل. الجهاز الأسود الصغير لا يفارق جيبه.

في اليوم السادس، جاءت ليلى إلى داليا في الممر المؤدي إلى المختبرات.

كانت ترتدي بذلة الأمن الرسمية، وشعرها الأسود مربوط بإحكام. توقفت أمامها دون مقدمات.

ـ أحتاج أن أتحدث معكِ. وحدنا.

دخلا إلى غرفة تخزين صغيرة وأغلقت ليلى الباب.

ـ الجناح الغربي يستهلك طاقة أكثر من المعتاد بنسبة سبعة عشر في المئة منذ أسبوعين، قالت بصوت منخفض. ـ وأبوكِ يغلق سجلات الدخول. الحراس الذين أرسلتهم للتفتيش وجدوا الباب مغلقاً بشفرة جديدة.

داليا لم تجب.

ليلى اقتربت خطوة.

ـ أنا لستُ غبية، داليا. أعرف أن هناك شيئاً هناك. وأعرف أنكِ تعرفين.

ـ ماذا تريدين بالضبط؟

ـ أريد أن أعرف إن كنا في خطر. لأن الشحنة القادمة كبيرة، والرجال الذين سيأتون لن يكونوا لطفاء إذا حدث أي تأخير أو... مفاجأة.

داليا نظرت إلى عينيها. ليلى لم تكن تهدد. كانت تخاف حقاً.

ـ لسنا في خطر من الخارج، قالت داليا أخيراً. ـ الخطر... قد يأتي من الداخل.

ليلى حدّقت فيها لحظة طويلة، ثم هزت رأسها ببطء.

ـ سأزيد الدوريات حول منصات الرسو. وإذا حدث أي شيء غريب... سأعود إليكِ.

خرجت.

في اليوم الخامس، نقل ماجد العشرة.

تم الأمر في منتصف الليل. داليا رافقته. استخدموا نفقاً جانبياً قديماً كان يُستخدم سابقاً لنقل المعدات. الدرافيل سبحت خلفهما في صمت شبه مطبق، كأنهم يفهمون ضرورة السرية.

وضعوهم في جزء معزول من الحظيرة الخارجية، خلف حاجز إضافي رفيع لا يلاحظه أحد بسهولة. السياج الكهربائي الخارجي ما زال يعمل، لكن البوابات الداخلية صارت تحت سيطرة الجهاز الأسود.

حين انتهى الأمر، وقف ماجد ودداليا على حافة الحاجز.

ـ الآن هم في مكانهم، قال.

ـ هل يشعرون بالخوف؟ سألت داليا.

ماجد نظر إلى الظلام المائي.

ـ لا أعتقد أنهم يعرفون الخوف كما نعرفه. لكنهم يعرفون الانتظار.

في اليوم الرابع، بدأت الإشاعات.

فنيّان يتحدثان في غرفة التحكم عن «أصوات غريبة» تخرج من الجناح الغربي ليلاً. آخر يقسم أنه رأى ظلاً كبيراً يتحرك خلف السور في ساعة متأخرة. ياسر، الفني الشاب، توقف عن العمل فجأة وطلب إجازة طارئة إلى السطح، لكن طلبه رُفض.

ماجد جمع كبار الفريق في اليوم الثالث.

ـ الشحنة كبيرة هذه المرة، قال بصوت هادئ. ـ أريد الجميع في أماكنهم. لا أخطاء. لا تأخير.

لم يذكر شيئاً عن الجناح الغربي. لم ينظر إلى داليا أثناء الكلام.

بعد الاجتماع، اقتربت منه داليا في الممر.

ـ إنهم يشعرون بالشيء، قالت. ـ حتى لو لم يعرفوا ما هو.

ـ دعيهم يشعرون. بعد أيام قليلة لن يهم.

في اليوم الثاني، جلست داليا ساعات طويلة أمام النافذة في غرفتها.

Downstream، خلف السور، كانت الحظيرة الكبيرة تبدو هادئة أكثر من المعتاد. الدرافيل العادية تتحرك ببطء، كأن أجسادها الثقيلة تنتظر مصيراً تعرفه غريزياً.

أما في الجزء المعزول... فلم تكن ترى شيئاً. فقط ظلماً أزرق وأحياناً لمعة فضية سريعة تختفي فور ظهورها.

في الليلة الأخيرة، قبل وصول الغواصة بساعات، دخلت داليا إلى غرفة العمليات ووجدت أباها وحيداً.

كان يمسك الجهاز الأسود بكلتا يديه، يحدّق فيه كأنه يزن شيئاً لا يُرى.

ـ غداً، قال دون أن يرفع رأسه.

ـ غداً، أعادت داليا.

ماجد وضع الجهاز على الطاولة.

ـ إذا تغير رأيكِ في أي لحظة... قلقي. سأفهم.

داليا اقتربت ووقفت إلى جانبه.

نظرا معاً إلى الشاشات التي تعرض القاع الهادئ.

ـ لم يتغير، قالت.

ثم أضافت بصوت أخفت:

ـ فقط... عدني أنكِ ستبقى بجانبي حتى النهاية.

ماجد مدّ يده وأمسك يدها.

ـ حتى النهاية.

خارج النافذة، كان البحر الأسود ينتظر.

والعدّ التنازلي يصل إلى صفر.

**الفصل العاشر**
**الوصول**

الغواصة ظهرت في الأفق المائي الساعة السابعة والنصف صباحاً.

كانت أكبر من المعتاد هذه المرة. ضعف الحجم تقريباً، تحمل على جانبيها شعار المجلس مضاءً بأضواء بيضاء قوية. نزلت ببطء شديد، كشافاتها تمسح القاع يميناً ويساراً كأنما تفتش عن أفخاخ.

في غرفة المراقبة الرئيسية، وقف الجميع.

ماجد في المقدمة، يداه خلف ظهره. داليا إلى يساره. ليلى على اليمين، تراقب الشاشات الجانبية التي تعرض كاميرات منصات الرسو. الفنيون في الخلف صامتون.

ـ ثلاثون عنصراً، قالت ليلى وهي تقرأ البيانات. ـ بالإضافة إلى معدات قطع ثقيلة وعربات نقل مضاعفة.

الغواصة استقرت على المنصة الخارجية بدقة آلية. البوابات فتحت، وخرج الرجال.

كريم عبد القادر كان أول من ظهر.

هذه المرة لم يكن يبتسم ابتسامته العريضة القديمة. وجهه بدا أكثر جدية، وعيناه تتحركان بسرعة تفحص المكان. ارتدى بذلة برتقالية جديدة عليها شارات إضافية. خلفه نزل الرجال واحداً تلو الآخر: بعضهم يحمل بنادق الصعق المطوّرة، وآخرون يسحبون أدوات القطع الكهربائية الكبيرة التي تُستخدم لتفكيك الأجساد بسرعة.

ـ دكتور مراد، قال كريم حين دخل غرفة المراقبة بعد دقائق. صوته كان أعلى من اللازم. ـ الشحنة هذه المرة استثنائية. المجلس ينتظر النتائج بفارغ الصبر.

ماجد صافحه.

ـ كل شيء جاهز.

كريم نظر إلى داليا.

ـ الآنسة مراد. ما زلتِ هنا. كنتُ أظنكِ قد تفضلين البقاء في غرفتكِ هذه المرة.

داليا لم تجب. فقط حدّقت فيه.

كريم ضحك ضحكة قصيرة.

ـ حسناً. العمل ينتظر. نبدأ خلال عشرين دقيقة. أريد الكمية كاملة قبل الظهيرة.

نزل مع رجاله إلى منطقة التوليد.

من الشاشات، كانت الصورة واضحة ومؤلمة في دقتها.

البوابات الخارجية للحظيرة فُتحت. الدرافيل العادية شعرت بالخطر فوراً. بدأت تتحرك في دوائر عصبية، تصدر أصواتها العالية المتقطعة. بعضها حاول الاختباء خلف الصخور الاصطناعية، لكن المساحة كانت محدودة والرجال كثيرون.

كريم وقف على منصة مرتفعة صغيرة، يحمل لوحته الإلكترونية.

ـ ابدأوا من الجانب الشرقي. خمسون أولاً.

بنادق الصعق أطلقت شراراتها الزرقاء.

الأجساد الرمادية تسقط واحدة تلو الأخرى على الرمال. ثم يأتي صوت السكاكين الكهربائية وهي تشق اللحم والدهون. الدم الشفاف يختلط بماء البحر ويحوله إلى لون وردي خفيف ينتشر ببطء.

داليا أمسكت بحافة الطاولة حتى ابيضّت أوصال أصابعها.

ماجد لم يتحرك. لكن داليا رأت عضلات فكه تتحرك تحت الجلد.

بعد نصف ساعة، كان العدد قد وصل إلى مئة وعشرين. العربات تمتلئ. الرجال يعملون بسرعة آلية، يتحدثون أحياناً عن مكافآتهم أو عن الطقس على السطح.

كريم رفع رأسه نحو كاميرا المراقبة كأنه يعرف أنهم يراقبونه.

ـ وتيرة جيدة، قال في جهازه. ـ نرفع السرعة.

في تلك اللحظة، شعرت داليا بيد أبيها تلمس يدها للحظة قصيرة جداً تحت الطاولة.

ثم سحبها.

وسمعت صوت نقرة خفيفة.

الجهاز الأسود الصغير كان في راحة يده.

الضوء الأحمر الصغير عليه اشتعل للمرة الأولى.

**الفصل الحادي عشر**

**الإشارة**

الضوء الأحمر الصغير ظل مشتعلاً بين أصابع ماجد.

في غرفة المراقبة، لم يلاحظ أحد شيئاً في البداية. الشاشات ما زالت تعرض المشهد نفسه: الرجال بالبذلات البرتقالية يتحركون بين الأجساد الرمادية، والصعق يتكرر، والماء يتحول تدريجياً إلى وردي أعمق. كريم يعلن الأرقام بصوته الجاف.

مئة وثلاثون... مئة وأربعون...

داليا نظرت إلى يد أبيها. ثم إلى وجهه.

كان ينظر إلى الشاشة الرئيسية فقط، لكن عينيه لم تكونا تريان ما يراه الجميع.

ضغط الإبهام.

نقرة واحدة ناعمة.

في الجزء المعزول من الحظيرة، فتحت البوابات الداخلية ببطء شديد. صوت المعدن وهو ينزلق كان خافتاً تحت ضجيج العمل في الجهة الأخرى.

العشرة تحركوا.

لم يندفعوا. لم يُصدروا أصواتاً عالية. خرجوا واحداً تلو الآخر كظل أسود طويل ينساب عبر الرمال. جلودهم الداكنة امتصت الضوء، وعيونهم الفضية كانت مفتوحة تماماً.

الدرافيل ذو البقعة الفضية كان في المقدمة.

سبحوا أولاً نحو المنطقة الوسطى، حيث كان القطيع العادي يُساق ويُقتل. اقتربوا بهدوء من الخلف، غير مرئيين وسط الفوضى والدم الخفيف والحركة المستمرة للرجال.

ثم توقفوا.

ثانية واحدة.

اثنتان.

في غرفة المراقبة، لاحظت ليلى شيئاً على إحدى الشاشات الجانبية.

ـ دكتور... هناك حركة غير طبيعية في القطاع الغربي من الحظيرة.

ماجد لم يجب.

على الشاشة الرئيسية، كان أحد الرجال ينحني ليضع سلسلة كهربائية حول جسد درافيل عادي ساقط. خلفه مباشرة، ظهر الشكل الداكن.

الرجل لم يسمع شيئاً.

الزعنفة الصدرية القوية ضربت عنقه من الخلف بدقة مروّعة. الصوت كان مكتوماً، يشبه تكسر عظم تحت الماء. الجسد البرتقالي ارتجف مرة واحدة ثم استرخى.

الصمت للحظة.

ثم جاء الصوت الثاني.

ثم الثالث.

الدرافيل العشرة تحركوا كوحدة واحدة. لم يكونوا يهاجمون بوحشية عشوائية. كانوا يختارون. الرجل الذي يحمل السكين أولاً. ثم الذي يقف على المنصة المرتفعة. ثم الذي يحاول الصراخ في جهاز الاتصال.

كريم عبد القادر كان ما يزال يعدّ.

ـ مئة وستون... مئة و...

التفت.

رأى أحد رجاله يطفو مقلوباً، خوذته متصدعة، وخيط رفيع من الدم يخرج منها. خلفه، عينان فضيتان تنظران إليه مباشرة عبر الماء.

ـ ما هذا...؟

الصوت لم يكتمل.

في غرفة المراقبة، ارتفعت أصوات الإنذار فجأة. الشاشات تتحول إلى صور مرتبكة. الفنيون يقفزون من أماكنهم. ليلى تصرخ أوامر إلى الحراس.

داليا لم تتحرك.

كانت ترى كل شيء.

ترى الدرافيل ذا البقعة الفضية يرفع رأسه نحو كاميرا المراقبة للحظة قصيرة، كأنه يعرف أنها تنظر.

ترى أباها يقف بلا حركة، والجهاز الأسود ما زال في يده، والضوء الأحمر ما زال مشتعلاً.

ثم سمعت صوت ماجد للمرة الأولى منذ أن ضغط على الزر.

صوت هادئ جداً، كأنه يتحدث إلى نفسه:

ـ الآن.

**الفصل الثاني عشر**

**الماء الأحمر**

في الدقائق الثلاث الأولى، لم يصدق أحد ما يراه.

الرجال بالبذلات البرتقالية كانوا ما يزالون يحاولون إكمال العمل. أحدهم صعق درفيلاً عادياً وسحبه نحو العربة، قبل أن يلاحظ أن زميله الذي كان إلى جانبه قبل ثوانٍ لم يعد موجوداً. آخر رفع رأسه ليطلب أداة إضافية، فوجد الوجه الفضي أمام خوذته مباشرة.

ثم انهار النظام.

الدرافيل العشرة لم يهاجموا كحيوانات جائعة. هاجموا ككائنات تعرف أين تضرب. الزعانف الصدرية القوية تستهدف الرقاب ونقاط الضعف في البذلات. الذيول الطويلة تضرب الخوذات بقوة محسوبة تكسر الزجاج أو تفصل أنابيب الأكسجين. بعضهم كان يدفع الضحية نحو السور الكهربائي الخارجي، حيث يكمل التيار ما بدأوه.

الماء الذي كان ورديّاً خفيفاً صار أحمر داكناً في دقائق.

في غرفة المراقبة، تحولت الشاشات إلى فوضى من الصور المهتزة. كاميرا سقطت، أخرى غطّاها الدم، ثالثة أظهرت رجلاً يحاول السباحة نحو المنصة وهو يُسحب من ساقه إلى الأسفل.

ليلى كانت تصرخ في جهاز الاتصال:

ـ كل الحراس إلى منصات الرسو فوراً! أغلقوا البوابات الخارجية! أغلقوا...

صوتها انقطع حين انفجر أحد أنابيب الضغط في الطابق السفلي واهتز المجمع كله.

كريم عبد القادر نجح في الوصول إلى منصة مرتفعة نسبياً. كان يتنفس بصعوبة داخل خوذته المتشققة، ويده ترتجف وهو يحاول الاتصال بالغواصة.

ـ اخرجوا... اخرجوا فوراً... هم ليسوا عاديين... هم...

لم يكمل.

الدرافيل ذو البقعة الفضية ظهر من تحته مباشرة. ارتفع بجسده الكامل تقريباً خارج الماء للحظة قصيرة، وضرب المنصة بذيله. المعدن انحنى. كريم سقط.

في اللحظة التي لمس فيها الماء، أحاطت به ثلاثة من العشرة.

لم يمزقوه فوراً. دفعوه أولاً نحو مجموعة من زملائه الذين كانوا يحاولون التجمع. كأنهم يستخدمونه طعماً أو رسالة.

داليا كانت ترى كل ذلك دون أن ترمش.

يدها كانت ما تزال ممسكة بحافة الطاولة. أبوها إلى جانبها، جامد كتمثال، والجهاز الأسود في كفه. الضوء الأحمر ينعكس على وجهه الشاحب.

ـ أوقفهم، همست داليا. ـ أبي... أوقفهم الآن.

ماجد لم يحرك رأسه.

ـ لا يمكن.

ـ اضغط الزر مرة أخرى. أعدهم.

ـ قلتُ لا يمكن. الإشارة كانت لمرة واحدة. بعد الإطلاق... هم من يقررون.

على إحدى الشاشات، ظهر فني شاب من فريق المجلس يحاول الاختباء خلف عربة محملة بالجثث. أحد الدرافيل اقترب منه ببطء، دار حوله، ثم تركه ومضى نحو هدف آخر.

لم يقتله.

كأن هناك قائمة.

ليلى التفتت إلى ماجد فجأة، عيناها واسعتان.

ـ أنتَ فعلت هذا.

لم يكن سؤالاً.

ماجد أخيراً نظر إليها.

ـ أنا فتحت الباب فقط.

الماء في الحظيرة كان أحمر تماماً الآن. الأجساد البرتقالية تطفو أو تُسحب إلى القاع. الدرافيل العشرة تتحرك بينها بثقة متزايدة، وأحياناً ترفع رؤوسها نحو كاميرات المراقبة كأنها تتأكد أن أحداً يشاهد.

في الخلفية، بدأ صوت إنذار جديد أكثر حدة:

**تحذير: اختراق في القطاع الخارجي. البوابات الرئيسية تحت الضغط.**

داليا شعرت أن الأرض تميد تحت قدميها.

البحر الذي أحبته طوال حياتها كان يتحول أمام عينيها إلى شيء آخر.

شيء أحمر.

شيء يتنفس.

شيء يتذكر.

**الفصل الثالث عشر**

**الاختناق**

المجمع لم يعد يتنفس بشكل طبيعي.

الإنذارات تتعالى من كل اتجاه، أضواء حمراء تومض في الممرات، وأبواب الطوارئ تُغلق أوتوماتيكياً ثم تُفتح بالقوة. صوت المعدن وهو يئن تحت الضغط يتردد في

الجدران. في الطوابق السفلية، تسرب ماء البحر من أحد الصمامات الجانبية وبدأ يغمر الممر ببطء.

ليلى كانت تحاول فرض نظام.

ـ كل المدنيين إلى المأوى المركزي! الحراس معى إلى منصة الرسو الداخلية! أغلقوا القطاعات الغربية والشرقية!

صوتها كان مبحوحاً من الصراخ. ثلاثة من حراسها فقط استجابوا. الباقون إما اختفوا في الفوضى أو رفضوا الخروج من أماكنهم.

في غرفة المراقبة، بقي ماجد ودواليا وثلاثة فنيين فقط. الشاشات تعرض صوراً متقطعة: أجزاء من الحظيرة، منصات رسو فارغة، وظلال داكنة تتحرك بسرعة عبر الكاميرات التي ما زالت تعمل.

ـ عدد القتلى من فريق المجلس حتى الآن تسعة عشر، قال أحد الفنيين بصوت مرتجف وهو يقرأ البيانات. ـ ستة في عداد المفقودين. الغواصة أغلقت بواباتها ورفضت فتحها.

داليا وقفت.

ـ سأنزل.

ماجد أمسك ذراعها.

ـ لا.

ـ أحتاج أن أرى بنفسي. الكاميرات لا تكفي.

ـ داليا...

سحبت ذراعها وخرجت قبل أن يتمكن من إكمال الجملة.

الممرات كانت مليئة بالناس الراكضين في اتجاهات متعاكسة. فني يبكي وهو يمسك بجهاز اتصال لا يرد. امرأة من فريق الصيانة تجلس على الأرض وظهرها إلى الجدار، تحدق في الفراغ. رائحة الأوزون والماء المالح والدم المختلط تملأ الهواء.

وصلت إلى نافذة مراقبة سفلية تطل مباشرة على الحظيرة.

الزجاج كان مغطى جزئياً بطبقة حمراء رقيقة من الداخل. مسحته بكم بذلتها.

رأتهم.

العشرة كانوا ما يزالون في المنطقة. لم يحاولوا اقتحام المجمع بعد. كانوا يتحركون بين الجثث والعربات المقلوبة بهدوء غريب. أحياناً يتوقف أحدهم عند جسد برتقالي، يفحصه، ثم يتركه. أحياناً يدفعون جثة نحو أخرى كأنها يرتبون شيئاً.

ثم رأت الشيء الذي جعلها تتراجع خطوة.

أحد الدرافيل، ليس ذو البقعة الفضية، كان يمسك بجهاز اتصال سقط من أحد الرجال. يضغط عليه بزعنفته مرة بعد مرة. الشاشة الصغيرة تضيء وتنطفئ. كأنه يحاول فهمه... أو استخدامه.

داليا همست لنفسها:

ـ هم يختارون.

لم يكونوا يقتلون كل من يرونه. في زاوية بعيدة، كان ثلاثة من رجال المجلس محتميين خلف حاوية معدنية كبيرة. الدرافيل مروا بالقرب منهم مرتين ولم يهاجموا. بينما رجل آخر حاول الزحف نحو الغواصة... فانسحب في ثوانٍ.

كان هناك منطق.

قائمة غير مرئية.

سمعت خطى خلفها. التفتت. ليلى كانت تقف هناك، وجهها شاحب وملابسها مبللة.

ـ رأيتِ ما أرى؟ سألت ليلى.

داليا أومأت.

ـ هم لا يهاجمون عشوائياً.

ـ أعرف. رأيت أحدهم يترك فنيّاً مصاباً ويمضي نحو كريم... أو ما تبقى منه.

ليلى اقتربت من الزجاج.

ـ أبوكِ فتح الباب. لكنه لم يعد يتحكم فيهم، أليس كذلك؟

داليا لم تجب.

في الأسفل، رفع الدرافيل ذو البقعة الفضية رأسه فجأة نحو النافذة.

نظر مباشرة إلى المكان الذي تقفان فيه.

ثانية.

ثانيتان.

ثم أصدر صوتاً حاداً متقطعاً تردد عبر الماء ووصل إليهما حتى من خلف الزجاج السميك.

ليلى همست:

ـ هو يعرف أننا هنا.

داليا وضعت يدها على الزجاج.

العين الفضية لم ترمش.

في تلك اللحظة، شعرت داليا أن الاختناق ليس فقط من نقص الهواء في الممرات، ولا من الماء الذي يتسرب، ولا من الإنذارات.

الاختناق كان آتياً من النظرة نفسها.

نظرة لم تعد حيوانية.

نظرة تعرف.

وتنتظر الخطوة التالية.

**الفصل الرابع عشر**

**صوت من الخارج**

بعد ساعتين من بدء الهجوم، نجحوا أخيراً في فتح قناة اتصال مشفرة مع السطح.

الغرفة التي اختاروها كانت غرفة الاتصالات الاحتياطية في الطابق الأوسط. الشاشات فيها أقل عدداً، والإضاءة خافتة. ماجد جلس أمام الجهاز الرئيسي. داليا وليلى تقفان خلفه. فني الاتصالات الشاب يحاول تثبيت الإشارة وسط التشويش.

الصورة ظهرت أولاً مقطعة، ثم استقرت.

وجه إلينور فايس.

كانت في غرفة مختلفة هذه المرة، أكثر قتامة، وخلفها رجال ببدلات رسمية يتحركون بسرعة. عيناها لم تعد باردتين فقط. كان فيهما غضب حقيقي.

ـ دكتور مراد. ما الذي يحدث هناك بالضبط؟

ماجد تكلم بصوت منخفض ومستوٍ:

ـ فقدنا السيطرة على القطيع المعدل. هناك خسائر في فريق الاستلام. المجمع في حالة إغلاق طارئ.

ـ قطيع معدل؟ أي قطيع معدل؟ لم يكن هناك أي ذكر لجيل جديد في التقارير.

صمت قصير.

إلينور مالت نحو الكاميرا.

ـ أنتَ أخفيتَ تجارب غير مرخصة. أليس كذلك؟

قبل أن يجيب ماجد، ظهرت نافذة أخرى على الشاشة. الدكتور سامر الخطيب. كان يبدو أنه يتصل من مكان مختلف، مختبر أو غرفة عمليات أخرى. وجهه شاحب، وشعره غير مرتب.

ـ دكتورة فايس، اسمحوا لي. أنا أراجع البيانات الواردة الآن. الإشارات الحرارية والسلوكية لا تشبه أي تمرد حيواني مسجل. هذه الكائنات تتحرك بأنماط منسقة. هناك اختيار للأهداف. هناك... تجاهل لبعض الأفراد وإصرار على آخرين.

إلينور قاطعته:

ـ أنا لا أحتاج تحليلاً سلوكياً الآن. أحتاج إلى معرفة كم عدد القتلى، وهل يمكن السيطرة على الوضع، وهل المجمع ما زال قادراً على تسليم الشحنة.

سامر تجاهل كلامها ونظر مباشرة إلى الكاميرا، كأنما يخاطب داليا تحديداً.

ـ الآنسة مراد... هل أنتم بخير؟ هل يمكنكِ وصف ما رأيتِه؟

داليا تقدمت خطوة.

ـ هم عشرة فقط. أكبر، أذكى، وعيونهم مختلفة. لا يهاجمون كل من يرونه. يختارون. بعضهم حاول استخدام الأجهزة التي سقطت من الرجال.

سامر أغلق عينيه لحظة كأنه يستوعب.

ـ هذا يعني أن مستوى الإدراك أعلى بكثير مما سُمح به في أي بروتوكول. دكتور مراد... ماذا فعلتَ بالضبط في الشيفرة الوراثية؟

ماجد أجاب بعد صمت:

ـ رفعتُ الذكاء. أضفتُ قدرة محدودة على التنفس الهوائي. وعدّلتُ مراكز العدوانية والذاكرة.

ـ الذاكرة؟

ـ نعم. أردتهم أن يتذكروا.

إلينور ارتفعت نبرة صوتها:

ـ أنتَ مجنون. أنتَ خلقتَ كائنات انتقامية داخل منشأة غذائية دولية. هل تدرك ما سيحدث حين تصل هذه الأخبار؟

في الخلفية، سمعوا صوت إنذار جديد داخل المجمع. ليلى نظرت إلى جهازها المحمول.

ـ الضغط على البوابة الخارجية للحظيرة زاد. هم يحاولون شيئاً.

سامر قال بسرعة:

ـ استمعوا إليّ جميعاً. إذا كانت هذه الكائنات تمتلك ذاكرة جماعية أو قدرة على التعلم السريع، فإطلاق النار العشوائي أو محاولة الإبادة قد تزيد الأمر سوءاً. أحتاج إلى كل البيانات الوراثية فوراً. وأحتاج إلى أن يبقى أحدكم على اتصال مستمر.

إلينور رفعت يدها.

ـ الدكتور الخطيب، أنتَ لستَ في موقع القرار. الوحدة الأمنية التابعة للمجلس ستتحرك خلال ساعات. المجمع سيُعزل بالكامل. وإذا لزم الأمر... سيُدمَّر.

الصورة ارتجفت.

ماجد قال بهدوء:

ـ إذا دمّرتم المجمع وأنتم لا تفهمون ما تواجهونه، فأنتم فقط تؤخرون المشكلة.

إلينور نظرت إليه طويلاً.

ـ المشكلة أنتَ يا دكتور مراد. وأنتِ أيضاً، الآنسة.

قطعت الاتصال.

بقيت نافذة سامر مفتوحة لبضع ثوانٍ إضافية. نظر إلى داليا مرة أخيرة.

ـ سأحاول كسب وقت. لا تموتوا قبل أن أعود إليكم.

ثم اختفت الصورة.

الغرفة عادت إلى الإضاءة الحمراء الخافتة.

داليا جلست على أقرب كرسي. صوتها كان خافتاً حين تكلمت:

ـ هم قادمون. من فوق ومن تحت.

ماجد أمسك الجهاز الأسود الذي كان ما يزال في جيبه. الضوء الأحمر فيه انطفأ منذ ساعات.

ـ أعرف.

ليلى كانت تنظر إلى الباب.

ـ إذن لم يعد لدينا سوى خيارين: إما أن نسيطر على ما أطلقناه... أو نغرق معه.

**الفصل الخامس عشر**

**الأب والابنة تحت الضغط**

وجدته في الجناح الغربي.

الباب كان مفتوحاً هذه المرة. الإضاءة الزرقاء الخافتة ما زالت تعمل، لكن الحوض الكبير فارغ. المياه راكدة، وأجهزة المراقبة تعرض خطوطاً مسطحة. بقايا طعام جاف وأدوات مبعثرة على الطاولات تشير إلى أن المكان أُخلي على عجل.

ماجد كان جالساً على الكرسي المعدني الوحيد، ظهره إلى الباب، ينظر إلى الحوض الفارغ.

داليا دخلت وأغلقت الباب خلفها.

ـ كنتُ أعرف أنني سأجدك هنا.

لم يلتفت.

ـ جاؤوا من هذا المكان، قالت. ـ خرجوا من هنا. وكل ما يحدث الآن بدأ من قرارك.

ماجد تكلم بصوت منخفض، كأنه يواصل حديثاً داخلياً:

ـ أحد عشر عاماً وأنا أقيس وأعدّل وأراقب. أحد عشر عاماً وأنا أرى الأرقام ترتفع: عدد القتلى من الجوع في مكان، وعدد «الرؤوس» التي نرسلها في مكان آخر. في يوم من الأيام توقفت عن القدرة على التظاهر بأن المعادلة متوازنة.

داليا اقتربت.

ـ فقررت أن تصنع معادلة جديدة. معادلة يموت فيها بشر بدل درافيل.

الآن التفت إليها. عيناه كانتا محمرتين من قلة النوم، لكن النظرة داخلها ثابتة.

ـ بشر كانوا يأتون كل ثلاثة أشهر ليقتلوا بلا تردد، ويضحكون، ويعدّون المكافآت. بشر حولوا كائنات تشعر إلى أرقام في تقارير. نعم. قررت أن أجعلهم يشعرون بما كانوا يسببونه.

ـ هذا ليس عدلاً، يا أبي. هذا انتقام.

ـ سمِّيه ما شئت.

صوتها ارتفع رغم محاولتها السيطرة عليه:

ـ الانتقام لا يقف عند حد. اليوم قتلوا ثلاثين رجلاً. غداً قد يقتلون الفنيين الذين لم يمسوا درفيلاً واحداً في حياتهم. ثم الحراس. ثم... نحن. هل هذا ما أردت؟ إبادة مقابل إبادة؟

ماجد وقف فجأة. الكرسي اندفع إلى الخلف واصطدم بالجدار.

ـ أردتُ أن يتوقفوا! أردتُ أن يعرف العالم أن الثمن لم يعد مجانياً! أن هناك من يرد.

ـ والعشرة الذين أطلقتهم؟ هل هم أداة فقط؟ أم أصبحوا شيئاً آخر لا تسيطر عليه؟

صمت.

داليا اقتربت أكثر حتى صارت على بعد خطوة واحدة منه.

ـ رأيتُ أحدهم يمسك جهاز اتصال ويحاول تشغيله. رأيتُ كيف يتجاهلون بعض الناس ويقصدون آخرين. هم ليسوا سلاحاً أعمى بعد الآن. هم يقررون. وأنتَ... أنتَ فقط من فتح الباب.

ماجد أسند يديه إلى حافة الحوض الفارغ. رأسه انحنى.

ـ أعرف.

ـ هل ندمت؟

رفع رأسه. للمرة الأولى منذ أيام بدا عليه التعب الحقيقي، لا التصميم.

ـ أنا نادم على سنوات الصمت أكثر مما أنا نادم على هذا. لكنني... خائف مما قد يحدث بعد الآن. نعم.

داليا شعرت أن الغضب يبدأ يتراجع قليلاً، ويحل محله شيء أثقل.

ـ المجلس قادم. قالت. ـ سيعتبروننا جميعاً مسؤولين. وقد يدمرون المجمع فوق رؤوسنا. والدرافيل العشرة في الخارج لن يفرقوا بين من صمت وبين من ذبح.

ماجد مد يده نحوها ثم توقف في منتصف المسافة.

ـ لهذا أردتكِ أن ترحلي قبل أن يصلوا. ما زال هناك وقت. الغواصة الصغيرة في القطاع الشمالي جاهزة. يمكنكِ الوصول إلى الشاطئ قبل أن يغلقوا المنطقة تماماً.

داليا هزت رأسها.

ـ قلتُ لكِ من قبل. لن أتركك. ولن أترك هذا المكان ليُحسم بهذه الطريقة.

ـ حتى لو كان الثمن حياتكِ؟

نظرت إليه طويلاً.

ـ أنتَ علمتني أن البحر لا يغفر لمن يخافه فقط. بل يغفر لمن يفهمه. أنا ما زلتُ أحاول أن أفهم. لكنني لن أفهم وأنا هاربة.

ماجد أغمض عينيه لحظة. حين فتحهما، كان هناك شيء يشبه الاستسلام الهادئ.

ـ إذن نبقى.

ـ نبقى، أعادت داليا.

ثم أضافت بصوت أخفت:

ـ لكنني لن أسمح بأن يتحول ما فعلته إلى مجزرة مفتوحة. إذا كان هناك طريقة لإيقافهم أو للتفاوض معهم... فسنبحث عنها. معاً.

ماجد نظر إلى الحوض الفارغ مرة أخيرة.

ـ هم لا يتفاوضون بالطريقة التي نعرفها. لكن... ربما يسمعونكِ أنتِ.

خارج الجناح، كان صوت الإنذارات ما يزال يدور في الممرات كصوت تنفس مريض.

ودواليا أدركت أن المواجهة الحقيقية لم تكن مع أبيها فقط.

كانت مع السؤال الذي سيظل يطاردهم حتى النهاية:

هل يمكن لشخص أن يصنع كائناً للانتقام... ثم يطلب منه أن يتوقف حين يقرر هو أن الانتقام يكفي؟

**الفصل السادس عشر**

**الحصار**

بحلول الساعة السادسة مساءً، كانت منطقة التوليد ومنصات الرسو الخارجية بالكامل تحت سيطرة العشرة.

الكاميرات التي بقيت تعمل أظهرت الصورة بوضوح مرعب: لا يوجد أي جسد برتقالي يتحرك بعد. الغواصة الكبيرة أغلقت نفسها تماماً ورفعت مستوى الدفع كأنها تستعد للرحيل في أي لحظة، لكنها لم تتحرك. الدرافيل يدورون حولها في دوائر بطيئة ومنتظمة، كحراس أو كمن ينتظرون أمراً.

داخل المجمع، صار الهواء أثقل.

أنظمة التهوية تعمل بطاقة منخفضة بعد أن تضرر أحد المولدات الفرعية. الماء الذي تسرب في الطوابق السفلية وصل إلى مستوى الركبة في بعض الممرات. الإنذارات لم تعد تُغلق؛ صارت خلفية مستمرة كالطنين.

ليلى جمعت من بقي من الحراس والفنيين في المأوى المركزي. العدد الكلي: تسعة عشر شخصاً، بينهم داليا وماجد.

ـ البوابات الخارجية مغلقة يدوياً الآن، قالت وهي تعرض مخططاً على الشاشة المحمولة. ـ لكن الضغط عليها يزداد. هم لا يضربون بقوة عشوائية. يختبرون النقاط الضعيفة.

فني شاب رفع يده مرتجفاً:

ـ هل يمكنهم دخول المجمع؟

ليلى نظرت إلى ماجد قبل أن تجيب.

ـ إذا أرادوا... نعم. البوابات لم تُصمَّم لمواجهة كائنات بهذا الحجم والذكاء.

الصمت امتد.

داليا كانت تقف قرب النافذة الداخلية التي تطل على الممر المؤدي إلى القطاع الغربي. في انعكاس الزجاج، رأت وجهها شاحباً وعينيها غائرتين. خلفها، كان الجميع ينتظرون قراراً من أحد.

ماجد تكلم أخيراً:

ـ المجلس سيصل خلال ساعات. ربما أقل. حين يصلون، لن يفاوضوا. سيعزلون المنطقة وقد يستخدمون أسلحة ثقيلة.

ـ وماذا عن العشرة؟ سأل أحدهم.

ـ العشرة صاروا خارج أي حسابات.

في تلك اللحظة، اهتز المجمع اهتزازة خفيفة جديدة. ثم أخرى.

ليلى ركضت إلى لوحة التحكم القريبة.

ـ القطاع الشمالي... البوابة الثانوية. هم يضغطون هناك.

ظهرت الصورة على الشاشة الرئيسية.

واحد منهم فقط. الدرافيل ذو البقعة الفضية.

كان يدفع جسده الكبير ضد البوابة المعدنية مرة بعد مرة، ليس بقوة مجنونة، بل بإيقاع ثابت ومحسوب. كل صدّمة تترك انبعاجاً أعمق قليلاً. خلفه، ظهر اثنان آخران يراقبان.

ثم توقف.

رفع رأسه نحو الكاميرا المثبتة فوق البوابة.

العين الفضية امتلأت الشاشة.

ثابتة.

واعية.

قريبة جداً.

كأنها تنظر إلى كل شخص في المأوى مباشرة.

أحد الفنيين تأوه بصوت خفيض. امرأة غطت فمها بيديها. ليلى همست:

ـ هو يعرف أين نحن.

داليا تقدمت نحو الشاشة دون أن تشعر.

الدرافيل لم يتحرك. فقط استمر في النظر. ثم فتح فمه قليلاً وأصدر سلسلة أصوات متقطعة سريعة، مختلفة عن كل ما سمعوه من قبل. ترددت داخل المأوى عبر مكبرات الصوت كأنها رسالة مشفرة.

بعدها دفع البوابة مرة أخيرة.

صوت المعدن وهو ينثني ملأ المكان.

ثم انسحب ببطء إلى الظلام المائي، وتبعه الآخران.

الشاشة عادت تعرض البوابة المنبعجة والماء الأحمر الداكن خلفها.

ليلى أغلقت البث.

ـ هم يستطيعون الدخول متى شاؤوا. الآن يختارون فقط... متى.

ماجد وضع يده على كتف داليا. كانت ترتجف خفيفاً.

ـ الجزء الصعب لم يبدأ بعد، قال بصوت لا يكاد يُسمع.

داليا نظرت إلى الباب المعدني للمأوى، ثم إلى الوجوه المنهكة حولها.

خارج المجمع، تحت الضغط والظلام والماء الذي لم يعد أزرق، كانت عشرة كائنات تنتظر.

داخله، كان الباقون يتنفسون الهواء المتبقي ويحسبون الساعات قبل أن يصل من فوقهم من لا يعرف الرحمة أيضاً.

الحصار اكتمل من جهتين.

والليل تحت البحر كان ما يزال طويلاً.

**الفصل السابع عشر**

**من فوق**

وصلت أولى الغواصات المسلحة في الساعة الثالثة فجراً.

لم تكن تشبه غواصات الشحن السابقة. كانت أنحف، أسرع، مطلية بطلاء أسود غير عاكس، وتحمل على جانبيها فتحات أنابيب طوربيد وأذرع ميكانيكية مجهزة بأسلحة صعق عالية الجهد. ثلاث غواصات في البداية، ثم ظهرت رابعة أكبر حجماً من الخلف كأنها مركز القيادة.

الضوء الكاشف سقط على المجمع فجأة كأنه ساطع من سماء أخرى.

داخل المأوى المركزي، استيقظ الجميع على صوت الإنذار الجديد المختلف: نغمة أطول وأحدّ، مصحوبة بصوت آلي متكرر:

**«تحذير: وحدات تدخل تابعة لمجلس الغذاء العالمي. المنطقة أصبحت تحت الحظر البحري.»**

ليلى فتحت قناة الاتصال الخارجية فوراً. الصورة ظهرت بعد ثوانٍ. رجل في الخمسين، يرتدي زياً أسود رسمياً، خلفه شاشات وخرائط. صوته كان خالياً من أي عاطفة.

ـ مجمع البيروني. أنا القائد الميداني يوسف منصور، وحدة التدخل السريع التابعة للمجلس. أتحدث إلى المسؤول الحالي.

ماجد تقدم.

ـ أنا الدكتور ماجد مراد.

ـ الدكتور مراد، أنتَ ومن معك مطلوبون للتحقيق فوراً. نطالب بفتح بوابات الرسو الداخلية خلال عشر دقائق، وتسليم جميع الأفراد، وتأمين أي كائنات معدلة ما زالت حرة. أي مقاومة ستُعامل كعدوان على مهمة إنسانية دولية.

داليا وقفت إلى جانب أبيها.

ـ هناك قتلى من الطرفين، قالت. ـ والوضع داخل الماء ليس تحت سيطرة أحد تماماً.

الرجل نظر إليها لثانية.

ـ الآنسة مراد. اسمكِ مسجل أيضاً. عشر دقائق. بعدها نتدخل بالقوة.

انقطع الاتصال.

الصمت داخل المأوى كان أثقل من أي إنذار.

ليلى قالت بهدوء:

ـ الأسلحة التي يحملونها قادرة على اختراق البوابات الخارجية في أقل من خمس دقائق. وإذا استخدموا الشحنات اللاصقة، قد يغمرون قطاعات كاملة.

فني مسن جلس على الأرض ودفن رأسه بين يديه. امرأة أخرى بدأت تصلي بصوت خافت.

ماجد نظر إلى الساعة.

ـ تسع دقائق.

داليا أمسكت ذراعه.

ـ إذا فتحنا الأبواب الآن، سيقتلون العشرة فوراً. وربما يقتلونك أنتَ أيضاً كمثال.

ـ وإذا لم نفتح، قد يموت الجميع هنا.

ليلى تدخلت:

ـ هناك خيار ثالث. نفاوض على وقت إضافي. نقول إننا نحاول السيطرة على الكائنات، ونطلب فريق احتواء متخصص بدل التدخل المسلح المباشر.

ماجد هز رأسه.

ـ لن يمنحونا وقتاً. إلينور فايس تريد رأساً، والرأس هو أنا.

من الخارج جاء صوت جديد: مكبرات الغواصات تطلق رسالة متكررة عبر الماء، تصل حتى داخل الجدران:

**«افتحوا البوابات. سلموا أنفسكم. هذه فرصتكم الأخيرة.»**

داليا نظرت إلى الوجوه المنهكة حولها، ثم إلى أبيها، ثم إلى الباب المعدني الذي يفصلهم عن الممرات المؤدية إلى الماء.

ـ ست دقائق، قالت ليلى.

ماجد أخرج الجهاز الأسود من جيبه. الضوء فيه ما زال مطفأ. راح يقلبه بين يديه كأنه يزن خياراً أخيراً.

ـ إذا دخلوا بالقوة، والعشرة ما زالوا في الخارج... ستكون مجزرة أكبر.

داليا اقتربت منه حتى صار صوتها لا يسمعه أحد غيره.

ـ إذن لا نفتح. ولا نستسلم. نستخدم الدقائق المتبقية في شيء آخر.

ـ ماذا؟

نظرت إليه بعينين ثابتتين رغم الإرهاق.

ـ أحاول الكلام معهم مرة أخيرة. قبل أن يتحول كل شيء إلى نار تحت الماء.

ماجد حدّق فيها.

ثم أومأ برأسه مرة واحدة بطيئة.

خارج المجمع، كانت الغواصات الأربع ترتب نفسها في تشكيل هجومي. الأضواء الكاشفة تثبت على البوابات الرئيسية.

والعدّ التنازلي من فوقهم وصل إلى خمس دقائق.

**الفصل الثامن عشر**

**خيارات مستحيلة**

أربع دقائق ونصف.

اجتمعوا في زاوية المأوى بعيداً عن الباقين. ماجد، داليا، ليلى، واثنان من أقدم الفنيين: رجل يُدعى حامد كان يعمل في المجمع منذ تأسيسه، وامرأة تُدعى سارة مسؤولة أنظمة الحياة.

ليلى عرضت الخيارات بسرعة وبلا تجميل.

ـ الخيار الأول: نفتح البوابات الآن. نستسلم. نسلّم أنفسنا ونأمل أن يكتفوا بمحاكمة ماجد وداليا ويتركوا الباقين. احتمال البقاء على قيد الحياة للأكثرية: متوسط إلى جيد. احتمال أن يُقتل العشرة فوراً: شبه مؤكد.

ـ الخيار الثاني: نرفض الفتح ونتحصن. هم سيخترقون خلال دقائق. نقاوم بما لدينا من أسلحة خفيفة وصعق. الخسائر ستكون عالية جداً من الطرفين، والمجمع قد يُغمر جزئياً أو كلياً.

ـ الخيار الثالث: نحاول التواصل مع العشرة. داليا تنزل أو تقترب من نقطة اتصال، ونرى إن كان ما زال هناك أي إمكانية لإيقافهم أو توجيههم قبل أن يبدأ إطلاق النار من فوق.

حامد قال بصوت خشن:

ـ التواصل؟ مع كائنات قتلت عشرات الرجال في ساعات؟ هذا انتحار.

سارة أضافت:

ـ حتى لو فهمت داليا شيئاً منهم... هل سيفهمون هم أن هناك الآن عدواً مشتركاً من فوق؟ هم يرون كل بشر بنفس العين ربما.

داليا تكلمت:

ـ ليسوا كذلك. رأيتُ كيف يختارون. رأيتُ كيف تركوا بعض الناس وركزوا على آخرين. هناك تمييز. هناك ذاكرة. إذا كان هناك أي احتمال أن يسمعوا أحداً... فأنا الأقرب إلى أن أكون هذا الأحد.

ماجد نظر إليها.

ـ وإذا هاجمكِ أحدهم؟

ـ إذن أكون قد جربت. بدل أن أموت هنا منتظرة أن يفتحوا علينا النار من الجهتين.

ليلى ضغطت على ساعة يدها.

ـ ثلاث دقائق وخمسون ثانية.

الصمت سقط ثانية. أصوات الإنذارات البعيدة واهتزاز الغواصات وهي تثبت مواقعها كانت تصل إليهم بوضوح.

حامد هز رأسه.

ـ أنا مع التسليم. لدينا ناس هنا لم يطلبوا أيّاً من هذا. فنيون وحراس وعمال صيانة. لا يستحقون أن يموتوا من أجل تجارب أحد أو انتقام أحد.

سارة همست:

ـ وأنا.

ليلى نظرت إلى ماجد.

ـ القرار الأخير لك. أنتَ المدير العلمي، وأنتَ من فتح الباب.

ماجد أغمض عينيه لحظة. حين فتحهما، كان الصوت هادئاً لكنه محمّل بكل السنوات.

ـ إذا استسلمنا الآن، سيُقتل العشرة كحيوانات خطرة، وأُحاكم أنا كمجرم حرب بيولوجية، ودواليا كشريكة. والمجمع يُغلق أو يُحوَّل إلى شيء أسوأ. الانتقام الذي بدأته ينتهي بأن يُمسَح كأنهُ لم يكن، ويعود كل شيء كما كان: أرقام ورؤوس وشحنات.

التفت إلى داليا.

ـ لكن إذا نزلتِ الآن... فقد أفقدكِ.

داليا أمسكت يده.

ـ أنتَ فقدتَ أشياء كثيرة بالفعل كي تصل إلى هنا. لا تفقدني أيضاً بالتردد.

ليلى قالت:

ـ دقيقتان وأربعون ثانية.

ماجد سحب يده ببطء، ثم أخرج بطاقة وصول خاصة من جيبه وأعطاها لداليا.

ـ هذه تفتح منفذ الطوارئ السفلي في القطاع الشمالي. أقرب نقطة إلى المنطقة التي كانوا يتحركون فيها آخر مرة. خذي جهاز اتصال مفتوحاً على ترددنا فقط. إذا حدث أي شيء... ارجعي فوراً. لا بطولة.

داليا أمسكت البطاقة.

ـ لن أعدكِ بشيء غير أنني سأحاول.

ليلى التفتت إلى الباقين في المأوى ورفعت صوتها:

ـ استمعوا. نحن نشتري دقائق. أي شخص يريد محاولة الاستسلام منفرداً عبر البوابة الشرقية فليفعل الآن. الباقون يتحضرون للدفاع أو للإخلاء حسب ما سيحدث.

بعض الأجساد تحركت مترددة. معظمهم بقوا.

داليا اتجهت نحو الباب. قبل أن تخرج، نظرت مرة أخيرة إلى أبيها.

ماجد قال لها فقط:

ـ ارجعي.

ثم أضاف بصوت أخفت:

ـ من فضلكِ.

خارج المأوى، كان الممر مظلماً إلا من الأضواء الحمراء الومضية. صوت الرسالة المتكررة من الغواصات يصل عبر الجدران:

**«دقيقة واحدة.»**

داليا ركضت.

**الفصل التاسع عشر**

**النداء**

منفذ الطوارئ السفلي فتح بصوت هسيس طويل.

داليا كانت ترتدي بذلة الغطس الخفيفة وخوذة شفافة. جهاز الاتصال مثبت على معصمها، والتردد مفتوح مع المأوى. دخلت غرفة المعادلة، انتظرت حتى تساوى الضغط، ثم انزلقت إلى الماء.

البرودة ضربتها كالعادة، لكن هذه المرة كانت مختلفة. الماء لم يعد أزرق صافياً. كان عكراً، محمّلاً بجزيئات دم وأوساخ وفتات معدني صغير يتلألأ في ضوء الكشاف الضعيف الذي تحمله.

سبحت نحو القطاع الشمالي.

الخوف كان موجوداً، لكنه لم يكن هو السائد. كان هناك شيء آخر: إحساس غريب بأنها عائدة إلى مكان تعرفه أكثر مما تعرف اليابسة.

بعد ثلاث دقائق، رأته.

الدرافيل ذو البقعة الفضية كان وحيداً هذه المرة. يسبح ببطء فوق قاع رملي مغطى ببقايا الأدوات المكسورة. حين اقتربت، توقف ودار نحوها بجسده الكامل.

العين الفضية ثبتت عليها.

داليا توقفت على مسافة مترين. رفعت يديها ببطء، مفتوحة، فارغة.

ـ أنا لستُ واحدة منهم، قالت داخل الخوذة، صوتها يصل عبر الجهاز الصغير المثبت على الحزام والذي يطلق ذبذبات منخفضة في الماء. ـ أنا داليا. أنتَ رأيتني من قبل. في الحوض. عند الزجاج.

الدرافيل لم يتحرك.

خلفه، على مسافة أبعد، ظهرت ظلال أخرى. اثنان... ثم ثلاثة. توقفوا يراقبون. لم يقتربوا.

داليا قلقت نبضها يعلو في أذنيها. أجبرت نفسها على البقاء ثابتة.

ـ الذين جاؤوا اليوم من فوق... ليسوا مثل الذين كانوا يأتون كل مرة. هؤلاء جاؤوا ليقتلونكم. وليقتلونا نحن أيضاً. إذا بقيتم هنا يقاتلونكم، سيموت الجميع. أنتم. ونحن. والمكان كله.

أصدر الدرافيل صوتاً منخفضاً متقطعاً. سلسلة نقرات سريعة ثم صوت يشبه الزفير الطويل.

داليا لم تفهم المعنى حرفياً، لكنها شعرت بالوزن.

مدّت يدها ببطء نحو الأمام، راحة اليد مفتوحة.

ـ إذا كان هناك أي جزء فيكم ما زال يرى فرقاً... فارحموا من لم يذبح. اتركوا لنا طريقاً. أو اذهبوا. اختفوا في العمق قبل أن تصل النيران إلى هنا.

الثواني مرت ثقيلة.

ثم تحرك الدرافيل.

اقترب. ببطء شديد. حتى صار رأسه على بُعد أقل من ذراع من وجهها. العين الفضية كانت كبيرة جداً من هذه المسافة، وفيها انعكاس ضوء كشافها الصغير.

رفع زعنفته الصدرية.

لامس طرفها طرف أصابعها عبر الماء.

لمسة قصيرة. باردة. واعية.

ثم أصدر الصوت نفسه الذي سمعوه سابقاً عبر الكاميرات: سلسلة نقرات سريعة حادة. هذه المرة بدا أقرب إلى جواب.

خلفه، تحركت الظلال الأخرى. واحد منها دار وسبح بعيداً نحو الجنوب. ثم ثانٍ. ثم ثالث.

الدرافيل ذو البقعة الفضية بقي ثانية إضافية.

نظر إليها.

ثم دفع رأسه قليلاً إلى الأمام حتى لمس جبين خوذتها لمسة خفيفة جداً، كأنه يختم شيئاً.

وبعدها استدار وسبح بعيداً في الظلام العكر.

داليا بقيت مكانها، يدها ما زالت ممدودة في الماء الفارغ.

جهاز الاتصال على معصمها دق. صوت ماجد، مبحوحاً من التوتر:

ـ داليا؟ هل تسمعينني؟ ماذا يحدث؟

أجابت بصوت بالكاد يخرج:

ـ هم يرحلون.

ـ ماذا؟

ـ بعضهم على الأقل. ابتعدوا. لم يهاجموني.

من فوق، جاء صوت انفجار مكتوم تحت الماء. الغواصات بدأت تطلق شيئاً.

داليا رفعت رأسها نحو السطح الأسود.

النداء وصل.

والجواب كان... انسحاباً جزئياً.

ليس سلاماً.
لكنه لم يكن أيضاً استمراراً للقتل بلا تمييز.

سبحت مسرعة عائدة نحو منفذ الطوارئ قبل أن يتغير كل شيء مجدداً.

**الفصل العشرون**
**النار والماء**

الانفجار الأول وقع قبل أن تصل داليا إلى منفذ الطوارئ.

شحنة لاصقة التصقت بالبوابة الشمالية الخارجية وانفجرت في صمت مائي مكتوم، ثم تحول الصمت إلى موجة ضغط عنيفة دفعت جسدها إلى الخلف. الأضواء الحمراء داخل المجمع تومض بسرعة جنونية. صوت المعدن وهو يتمزق وصل حتى إلى داخل الخوذة.

القوات لم تنتظر انتهاء المهلة.

الغواصات الأربع أطلقت طائرات مسيّرة صغيرة تحت الماء، سوداء وسريعة، تطلق سهام صعق كهربائي عالية الجهد. في الوقت نفسه، فتحت الأذرع الميكانيكية وأطلقت شباكًا معدنية مشحونة ونبضات صوتية منخفضة التردد مصممة لتشويش الجهاز العصبي للكائنات البحرية.

لكن العشرة لم يكونوا في المكان الذي توقعوه.

بعضهم كان قد بدأ بالانسحاب فعلاً بعد لقاء داليا. ثلاثة أو أربعة اختفوا في الظلام العميق نحو الشعاب البعيدة. الباقون... بقوا.

الدرافيل ذو البقعة الفضية ظهر فجأة من تحت إحدى الغواصات الصغرى. ارتفع بجسده الكامل وضرب الذراع الميكانيكية من الأسفل بقوة هائلة. المعدن انحنى. سهم صعق انطلق في الاتجاه الخطأ واستقر في جسد غواص كان يخرج من فتحة جانبية.

الماء اشتعل بالضوء الأزرق للكهرباء والأحمر للدم الجديد.

داخل المجمع، ارتجّت الأرضيات. ليلى تصرخ أوامر:

ـ أغلقوا القطاعات الوسطى! انقلوا الجميع إلى المأوى العلوي! المولد الاحتياطي الآن!

ماجد كان يراقب الشاشات المتبقية. رأى داليا تظهر على كاميرا المنفذ السفلي وهي تدخل غرفة المعادلة بصعوبة.

ـ هي داخل، قال بصوت مبحوح. ـ أغلقوا المنفذ خلفها.

المواجهة خارج الجدران تحولت إلى فوضى محكمة.

المسيّرات تطارد الظلال الداكنة. الدرافيل يستخدمون بقايا العربات والجثث القديمة كغطاء، يهاجمون من الزوايا العمياء، يضربون المحركات وأجهزة الاستشعار أولاً. واحدة من الغواصات الصغرى فقدت التوازن بعد ضربة مزدوجة من اثنين منهما، واصطدمت بالسور الخارجي للحظيرة. شرارة كبيرة انفجرت، وتيار كهربائي ثانوي سرت في الماء وقتل كل ما كان قريباً منه: درفيلين عاديين متبقيين... وواحداً من العشرة.

الجسد الرمادي الداكن ارتجف ثم استقر على القاع، العين الفضية تطفئ ببطء.

الدرافيل ذو البقعة الفضية أصدر صرخة حادة وصلت حتى أجهزة الاستشعار داخل المجمع. الصوت كان مختلفاً هذه المرة. ليس نداء هجوم. كان أقرب إلى ألم أو غضب جماعي.

الباقون ردوا.

هاجموا الغواصة الأكبر مباشرة. ثلاثة معاً. ضربوا فتحات التوربينات، مزقوا كابلات خارجية، وحاولوا قلبها. القائد يوسف منصور ظهر على الشاشة الرئيسية للمرة الأخيرة وهو يصدر أمراً:

ـ استخدموا الشحنات الحرارية. الآن.

انفجارات متتالية تحت الماء. موجات ضغط عنيفة تضرب هيكل المجمع من الخارج. نوافذ مراقبة تتشقق. إنذار الفيضان يعلو في ثلاثة قطاعات دفعة واحدة.

داليا وصلت إلى المأوى العلوي وهي تسعل الماء من فمها. ماجد أمسكها.

ـ رأيتهم، قالت بصعوبة. ـ بعضهم رحل. الباقون يقاتلون.

ـ أعرف. واحد منهم سقط.

ليلى كانت تنظر إلى مخطط الهياكل.

ـ البوابة الشرقية انهارت جزئياً. الماء يدخل إلى الممر الرئيسي. إذا لم نغلق الأبواب الداخلية خلال دقيقتين... سنفقد الطابق بأكمله.

خارجاً، النار والكهرباء والدم اختلطت في الماء حتى صار لونه أسود محمراً.
المسيّرات تسقط واحدة تلو الأخرى. غواصتان صغيرتان تعطلتان وتطفوان نحو السطح ببطء. الغواصة القيادية تراجعت مسافة، ثم أطلقت رشقة أخيرة من الأسهم قبل أن تعلن الانسحاب المؤقت لإعادة التقييم.

في القاع، بقي أربعة فقط من العشرة.

يجولون وسط الدمار، يفحصون الجسد الساقط لرفيقهم، ثم يرفعون رؤوسهم نحو المجمع نفسه.

كأنهم يقررون إن كان العدو التالي من خلف الجدران... أم من فوق الماء.

داخل المأوى، كان الجميع يسمعون صوت الماء وهو يرتفع في الممرات السفلية.

النار انطفأت مؤقتاً.

لكن الماء... كان ما يزال جائعاً.

**الفصل الحادي والعشرون**

**ثمن الدم**

الماء كان قد وصل إلى مستوى الخصر في الممر المؤدي إلى غرفة المولدات الاحتياطية حين انهار الجدار الجانبي.

انفجار ثانوي من الخارج، أقرب هذه المرة، مزق الصفيحة المعدنية ودفع موجة من الماء العكر والدخان إلى الداخل. الأضواء انقطعت ثوانٍ ثم عادت حمراء ومرتجفة.

ماجد كان في المقدمة يحاول إغلاق الصمام اليدوي. الموجة ضربته وألقته إلى الجدار. صوت تكسر شيء في صدره كان مسموعاً حتى فوق هدير الماء. سقط على ركبتيه، والدم بدأ ينتشر من جنبه تحت البذلة.

داليا وصلت إليه زاحفة وسط التيار.

ـ أبي!

أمسكته. وجهه كان شاحباً جداً، والشفتان زرقاوين من البرد والألم. حاول الابتسام فلم يستطع.

ـ الصمام... أغلقه. وإلا غرق الطابق كله.

ساعدته على الوقوف بما تبقى من قوته. معاً أدارا العجلة المعدنية الثقيلة حتى أغلق الصمام وبدأ مستوى الماء يستقر. ثم انهار ماجد مرة أخرى، هذه المرة إلى الجنب.

داليا جلست على الأرض المبللة واحتضنت رأسه في حضنها. الدم كان دافئاً تحت أصابعها.

ـ لا تتكلم. سأجلب المساعدة.

أمسك يدها بقوة غير متوقعة.

ـ لا. اسمعيني أولاً.

صوته كان ضعيفاً لكنه واضح.

ـ أنا لم أصنعهم للانتقام فقط. صنعتهم لأنني كنتُ جباناً سنوات طويلة. كنتُ أوقّع التقارير وأشاهد الشحنات وأعود إلى غرفتي كأني لم أرَ شيئاً. في ليلة من الليالي... تذكرتُ عينيكِ وأنتِ طفلة تسألينني عن ندى. ولم أعد أقدر.

داليا كانت تبكي دون صوت. الدموع تختلط بالماء المالح على وجهها.

ـ لا تقل هذا الآن. ستبقى.

ـ لن أبقى. وهذا أفضل. إذا متُّ هنا، ربما يتوقف بعضهم عن رؤية كل البشر بنفس الطريقة. ربما... يرونكِ أنتِ مختلفاً.

حاول أن يرفع يده إلى وجهها فلم يستطع. داليا خفضت رأسها حتى لامست جبهته.

ـ أنا آسفة، همس. ـ آسف لأنني تركتكِ تحملين هذا معي.

في تلك اللحظة، جاء الصوت من خلفهم.

أحد الدرافيل العشرة، جريح ونازف من جنبه، كان قد دخل من الفتحة الممزقة في الجدار. يتحرك بصعوبة داخل الممر الضيق، عيناه الفضية لامعتان في الضوء الأحمر. خلفه ماء أعمق وظلال أخرى.

ليلى وصلت من الجهة المقابلة مع حارسين، أسلحتهما مصوبة.

ـ داليا، ابتعدي عنه!

الدرافيل توقف. نظر إلى ماجد المستلقي، ثم إلى داليا.

ماجد رأى الكائن وابتسم ابتسامة صغيرة متعبة.

ـ ها هو... أحد أبنائي الحقيقيين.

حاول أن يمد يده نحو الدرافيل.

الحارس أطلق النار.

سهم الصعق ضرب الجدار بجانب رأس الدرافيل. الكائن رد فوراً. اندفع إلى الأمام رغم الجرح، وضرب الحارس الأول بذيله بقوة هائلة داخل المساحة الضيقة. الجسد طار واصطدم بالسقف ثم سقط. الحارس الثاني أطلق النار مرة أخرى، فأصاب الدرافيل في الزعنفة.

ماجد حاول النهوض ليحميه أو ليوقفهم. لم يستطع.

سهم ثانٍ طائش، أو متعمد، اخترق صدر ماجد وهو يحاول التحرك.

الجسد ارتجف مرة واحدة في حضن داليا. العينان الزرقاوان اللتان ورثتهما عنه نظرتا إليها للمرة الأخيرة.

ثم فرغتا.

الصراخ الذي خرج من حلق داليا لم يكن بشرياً تماماً.

دفعته عنها للحظة كأنها لا تصدق، ثم سحبته إليها بقوة أكبر. الدم يغطي يديها ووجهها و صدرها. كانت تهز رأسه وتقول كلمات غير مفهومة.

الدرافيل الجريح اقترب أكثر. لم يهاجم. وقف على مسافة قريبة، ينظر إلى الرجل الميت ثم إلى الفتاة.

ليلى همست وهي تخفض سلاحها ببطء:

ـ داليا... يجب أن نتحرك. الماء يرتفع من جهة أخرى.

داليا رفعت رأسها.

وجهها كان مختلفاً. الدموع ما زالت تسيل، لكن شيئاً صلباً وكحلياً قد استقر في عينيها. نظرت إلى الدرافيل الجريح، ثم إلى جسد أبيها، ثم إلى الحارس الثاني الذي كان يرتجف خلف ليلى.

ـ اخرجوا، قالت بصوت منخفض وواضح. ـ اتركوني.

ـ داليا...

ـ قلتُ اخرجوا.

ليلى ترددت ثانية، ثم سحبت الحارس المتبقي وانسحبتا نحو الدرج العلوي.

داليا بقيت جالسة في الماء الأحمر، رأس أبيها على ركبتيها، والدرافيل الجريح يقف أمامها كتمثال حي.

مدّت يدها الملطخة بالدم نحو الماء.

ـ هو مات بسببكم... وبسببه هو أيضاً. وبسببهم.

الدرافيل أصدر صوتاً منخفضاً طويلاً.

داليا أجابت، والصوت يخرج من أعماقها هذه المرة:

ـ لا مزيد من التوقف. لا مزيد من المحاولات.

رفعت رأسها نحو الفتحة الممزقة التي يأتي منها هدير المعركة الخارجية.

ـ أكملوا ما بدأه.

العين الفضية حدّقت فيها طويلاً.

ثم أصدر الدرافيل نداءً حاداً تردد عبر الماء وخرج من الفتحة إلى الخارج.

من بعيد، جاءته إجابات.

داليا أحنت رأسها فوق جسد أبيها مرة أخيرة، قبلت جبهته الباردة، ثم أغلقت عينيه بأصابعها المرتجفة.

حين رفعت رأسها مجدداً، لم يعد في وجهها شيء من البنت التي كانت تسبح مع الدرافيل قبل أسابيع.

كان فيها غضب البحر كله.

**الفصل الثاني والعشرون**

**ما بعد الصمت**

الانفجار الأخير جاء من الخارج بعد أقل من ساعة.

الغواصة القيادية حاولت الاقتراب مرة أخرى لإطلاق شحنة حرارية مباشرة على الهيكل. الدرافيل الأربعة المتبقون، مع الجريح الذي عاد إليهم، كانوا ينتظرون. هذه المرة لم يهاجموا المحركات فقط. صعد اثنان منهما فوق الهيكل نفسه، ووجّها ضرباتهما إلى فتحات التهوية وأجهزة الاتصال. الشحنة انفجرت في مكانها الخطأ، أقرب إلى الغواصة منها إلى المجمع.

الضوء الأبيض ملأ القاع لثانية طويلة. ثم حلّ صمت ثقيل.

الغواصة القيادية فقدت التوازن وبدأت تصعد نحو السطح بشكل غير منتظم، تاركة خلفها ذيلاً من الفقاعات والدخان. الغواصتان المعطلتان كانتا قد سبقتاها. المسيّرات سقطت كلها.

تحت الماء، لم يبقَ سوى أربعة أجساد داكنة تتحرك ببطء بين الأنقاض.

داخل المجمع، كان الطابق السفلي بالكامل تقريباً تحت الماء. الناجون التسعة عشر ناقص اثنين (ماجد والحارس الذي سقط) تجمعوا في المأوى العلوي والممرات الجافة المتبقية. الهواء كان فاسداً والحرارة منخفضة.

داليا لم تصعد مع الباقين فوراً.

بقيت وقتاً إضافياً في الممر المغمور جزئياً، تجلس إلى جوار جسد أبيها الذي ثبّته بالحبال والدعامات كي لا يجرفه التيار. حين صعدت أخيراً، كان وجهها نظيفاً من الدم، لكن عينيها لم تعودا كما كانتا.

ليلى استقبلتها عند باب المأوى.

ـ انتهى الهجوم من فوق... مؤقتاً على الأقل. هم انسحبوا.

ـ والعشرة؟

ـ أربعة ما زالوا في الخارج. يدورون حول المجمع على مسافة. لم يحاولوا الدخول مجدداً.

داليا أومأت فقط.

في الساعات التالية، نجحوا في إعادة تشغيل مولد جزئي وإرسال إشارة استغاثة مشفرة على تردد قديم. الرد جاء بعد الفجر من جهة غير متوقعة: الدكتور سامر الخطيب.

الصورة كانت مهتزة، وصوته منخفضاً كمن يتحدث من مكان غير آمن.

ـ ما حدث عندكم تسرب بالفعل. المجلس يحاول السيطرة على الرواية: «تمرد حيواني ناتج عن تجارب غير مرخصة». اسم الدكتور ماجد يُقدَّم كمجرم وحيد. المجمع سيُغلق نهائياً ويُعلن منطقة محظورة.

توقف قليلاً.

ـ وأنتم... إذا خرجتم أحياء، ستُستجوبون لأشهر. ربما أكثر.

داليا تقدمت نحو الشاشة.

ـ أبي مات.

سامر صمت ثانية.

ـ أنا آسف.

ـ لا تكن آسفاً. قل لي ماذا سيحدث للدرافيل الأربعة الباقين.

سامر نظر إليها طويلاً كأنه يقرأ شيئاً في وجهها.

ـ إذا بقيت المنطقة محظورة، فقد يُتركون لبعض الوقت. البحر كبير. لكنهم لن يُنسَوا. المجلس لا ينسى ما يهدد صورته.

بعد انقطاع الاتصال، جلست داليا وحدها قرب نافذة علوية تطل على الماء المعتم.

في الأسفل، ظهرت الظلال الأربعة مرة أخيرة. دارت حول المجمع دورة كاملة بطيئة، ثم اتجهت نحو العمق، نحو الشعاب البعيدة حيث لا تصل الأضواء ولا الغواصات بسهولة.

واحد منها، قبل أن يختفي، رفع رأسه نحو النافذة.

داليا وضعت كفها على الزجاج.

لم تلوّح. لم تبتسم. فقط أبقت يدها هناك حتى اختفى آخر ظل.

ليلى جاءت بعد ساعة.

ـ وحدات الإنقاذ المدنية ستصل خلال يومين. المجلس لن يأتي بنفسه هذه المرة. يريدون إنهاء القصة بهدوء.

داليا أجابت دون أن تلتفت:

ـ القصة لم تنتهِ.

ـ أعرف أنكِ حزينة ومغضبة. لكن ما بقي منا هنا يحتاج إلى الخروج أحياء.

داليا نظرت إليها أخيراً.

ـ سأخرج. لكنني لن أنسى. ولن أدع أحداً يروي ما حدث كأنه حادث عرضي أو خطأ علمي.

في اليوم التالي، حين ظهرت أولى غواصات الإنقاذ المدنية في الأفق المائي، كان المجمع هادئاً تماماً. الماء الأحمر كان قد اختلط وذاب. البوابات الممزقة مفتوحة على الظلام.

ودواليا وقفت في غرفة المراقبة الفارغة، تنظر إلى القاع الذي لم يعد ملكاً لأحد.

الانتقام أخذ ثمنه.

والصمت الذي جاء بعده... لم يكن سلامًا.

كان مجرد انتظار للفصل التالي.

**الفصل الثالث والعشرون**

**سطح آخر**

بعد ثلاثة أشهر، كانت داليا تجلس على صخرة سوداء في طرف خليج مهجور شمال الغردقة.

الشمس منخفضة، والبحر أمامها يبدو هادئاً ومسطحاً كأنه لم يشهد شيئاً. الموج يصل إلى قدميها العاريتين ثم ينسحب، تاركاً رغوة بيضاء تذوب بسرعة. خلفها، على مسافة كيلومترات، كانت هناك نقاط تفتيش ودوريات بحرية ما زالت تعلن المنطقة الممتدة حتى مجمع البيروني «محظورة لأسباب بيئية وأمنية».

لم يعد هناك مجمع.

فجّروه بعد أسابيع من الحادث. رواية المجلس الرسمية قالت: «انهيار هيكلي ناتج عن تجارب وراثية غير منضبطة أدى إلى تمرد كارثي للكائنات المعدلة. المسؤول الرئيسي لقي حتفه أثناء محاولته احتواء الأزمة». اسم ماجد مراد صار مرتبطاً بالفشل والخطر. اسمها هي ورد في التقارير كـ«ناجِية تحت التحقيق»، ثم أُغلق الملف بهدوء.

سامر الخطيب زارها مرة واحدة في المستشفى العسكري الذي نُقلت إليه مع الباقين. قال لها إن أربعة درافيل على الأقل رُصدت بعد الحادث في أعماق أبعد، ثم اختفت من أجهزة التتبع. لم يُعثر عليها. لم يُقتل أي منها رسمياً.

ـ البحر أخذهم، قال لها. ـ أو هم أخذوا البحر.

ثم لم يعد يظهر.

الآن، على الصخرة، كانت داليا تمسك حجراً صغيراً أملس وتقلبه بين أصابعها. الجرح في راحة يدها الذي أصابها أثناء سحب جسد أبيها كان قد التحم، لكنه ترك خطاً أبيض رفيعاً.

تذكرت العين الفضية.

تذكرت اللمسة عبر الزجاج.

تذكرت النداء الذي أطلقته هي نفسها بعد أن أغلق عيني أبيها.

لم تكن نادمة على الكلمات التي قالتها في تلك اللحظة.

الغضب ما زال هناك، بارداً ومستقراً كطبقة تحت الجلد. ليس اللهب الذي كان في الساعات الأولى، بل جمرة لا تنطفئ. العالم فوق السطح استمر كأنه لم يحدث شيء: الشحنات الجديدة بدأت من مجمعات أخرى في أماكن أبعد، والتقارير عن المجاعة ما زالت تُقرأ بالأرقام نفسها، والناس يأكلون دون أن يسألوا من أين يأتي اللحم الرخيص هذه المرة.

رفعت رأسها.

في الأفق، بدا شيء يتحرك تحت السطح للحظة. ظل طويل داكن، أو مجرد لعبة ضوء. اختفى قبل أن تتأكد.

داليا لم تتحرك.

همست نحو الماء، بصوت لا يكاد يسمعه الموج:

ـ أنا ما زلتُ هنا.

الحجر سقط من يدها إلى الماء وابتلعه البحر دون صوت.

وقفت، مسحت ركبتيها، وسارت عائدة على الصخور نحو الطريق الترابي حيث تنتظرها دراجة نارية قديمة. لم تلتفت خلفها مرة أخرى.

لكن البحر، في الخلف، استمر في الحركة.

موجة بعد موجة.

كأنهُ يتذكر.

وكأنهُ ينتظر فقط أن يحين الوقت المناسب ليرد مرة أخرى.

---

**الفصل الرابع والعشرون**

**بعد الصمت الطويل**

مرّت سنتان وسبعة أشهر.

داليا كانت تقف على سطح قارب صغير قديم في خليج بعيد جنوب مرسى علم، بعيداً عن دوريات المجلس وعن أي عين رسمية. الشمس كانت منخفضة، والبحر أمامها يبدو عادياً لمن لا يعرف كيف ينظر. لكنها كانت تعرف.

تحت السطح، على عمق لا تصل إليه الكاميرات الرخيصة، كانت هناك حركة مختلفة.

في السنة الأولى بعد تدمير المجمع، كانت التقارير السرية التي تسربت تتحدث عن «اختفاء» الدرافيل الأربعة. في السنة الثانية، بدأت تظهر مشاهد غير رسمية: صيادون يتحدثون عن كائنات أكبر وأذكى تبعد القوارب عن مناطق معينة، وأجهزة تتبع تفقد إشاراتها فجأة في مربعات بحرية واسعة. ثم جاءت الصور الأولى من غواصين مستقلين: أعداد أكبر. صغار يسبحون إلى جانب البالغين. جلود داكنة وعيون تحمل اللمعة الفضية نفسها.

تكاثروا.

ولم يكتفوا بالاختباء.

المناطق التي سيطروا عليها صارت خالية تقريباً من الصيد الجائر ومن سفن الشحن التابعة للمجلس. الشعاب التي كانت بيضاء وميتة بدأت تستعيد ألوانها ببطء. أنواع من الأسماك لم تُرَ منذ عقود ظهرت مجدداً في الشباك الجانبية للقوارب الصغيرة. وعلى السواحل القريبة، بدأت أشجار المانجروف تعود في بقع متفرقة، وكأن البحر يتنفس من جديد ويدفع الحياة نحو اليابسة.

داليا راقبت كل ذلك من بعيد في البداية. ثم بدأت تقترب.

في ذلك المساء، كانت وحدها على القارب. جهاز سونار قديم يعمل أمامها، يرسم ظلالاً كبيرة تتحرك في العمق بانتظام. لم تكن خائفة. منذ أن أغلقت عيني أبيها في الممر المغمور، صار الخوف شيئاً آخر: أداة لا تعطلها.

سمعت صوت محرك قارب آخر يقترب من الجهة الشرقية.

لم تكن هناك دوريات في هذا الوقت وهذا المكان. رفعت المنظار.

قارب أصغر من قاربها، يقوده رجل واحد. حين اقترب بما يكفي، أوقف المحرك ورفع يديه ليظهر أنهما فارغتان.

كان في أوائل الثلاثينيات، نحيل القوام لكن يبدو قوياً، شعره الأسود قصير ومبلل بالرذاذ، ووجهه يحمل سمرة الشمس والبحر. عيناه هادئتان وواضحتان.

ـ الآنسة داليا مراد؟ صاح بصوت غير عدائي.

لم تجب فوراً. يدها كانت قريبة من جهاز الاتصال والطائرة المسيّرة الصغيرة المخبأة تحت المقعد.

ـ من أنت؟

ـ اسمي آدم وليد. أنا... كنتُ أبحث عنكِ منذ شهور.

رفع من القارب كيساً مقاوماً للماء وأخرج منه ملفاً سميكاً من الصور والخرائط.

ـ هذه صور من الشهور الستة الماضية. الدرافيل لم تختفِ. هم يتزايدون. وهناك مناطق كاملة عادت فيها الحياة البحرية بشكل لا يفسره أي تقرير رسمي. وأعتقد أنكِ تعرفين لماذا.

داليا ظلت صامتة، تدرس وجهه.

آدم تابع، صوته منخفضاً لكن ثابتاً:

ـ أنا لستُ من المجلس. ولستُ صحفياً يبحث عن قصة. أبي كان مهندس بيئة مات قبل سنوات وهو يحاول منع تجفيف أحد الخلجان من أجل مزارع سمكية تابعة لشركات مرتبطة بالمجلس. أنا أؤمن بما كان يؤمن به... وبما مات أبوكِ من أجله.

عند ذكر ماجد، شعرت داليا بشيء يتحرك في صدرها، قديم وحاد.

ـ كيف وجدتني؟

ـ بصعوبة. وغيرتُ قاربي ثلاث مرات. هناك من ما زال يراقب اسمكِ.

أشار إلى الماء خلفها.

ـ هم هنا، أليس كذلك؟ في هذا العمق.

داليا نظرت إلى السونار. الظلال كانت ما تزال هناك، تتحرك ببطء كأنها تستمع.

ـ ماذا تريد مني بالضبط، آدم وليد؟

نظر إليها مباشرة، دون مبالغة أو تملق.

ـ أريد أن أساعد. في حماية ما تبقى. في توثيق ما يعود من الحياة. وفي مواجهة المجلس قبل أن يحاولوا إعادة إنشاء مجمعات جديدة في أماكن أخرى. وحدكِ لن تستطيعي حمل كل هذا إلى النهاية. وأنا... لا أريد أن أظل أراقب من بعيد بينما الطبيعة تحاول أن تلتقط أنفاسها.

الصمت امتد بينهما، لا يقطعه إلا صوت الماء على جوانب القاربين.

داليا أخيراً أطفأت السونار.

ـ اقترب، قالت. ـ لكن إذا كنت تكذب... فالبحر هنا لم يعد يغفر بسهولة.

آدم ابتسم ابتسامة صغيرة حذرة، وبدأ يحرك قاربه ببطء نحوها.

تحت السطح، تحركت الظلال الكبيرة مرة واحدة كأنها وافقت.

أو كأنها تنتظر لترى.

**الفصل الخامس والعشرون**

**تحت السطح نفسه**

في الصباح التالي، نزلوا معاً.

داليا ارتدت بذلة الغطس القديمة التي احتفظت بها، وآدم ارتدى بذلته الخاصة التي بدت مستخدمة كثيراً. لم يتحدثا كثيراً فوق السطح. الاتفاق كان واضحاً: هو يتبعها، ولا يقترب أكثر من المسافة التي تسمح بها هي.

الماء كان صافياً أكثر مما كانته مياه المجمع في أيامها الأخيرة. الضوء ينزل في أعمدة خضراء مائلة، والقاع يظهر على عمق خمسة عشر متراً مغطى بطحالب جديدة وصخور استعادت ألوانها جزئياً.

داليا سبحت أولاً نحو النقطة التي كان السونار قد رصد فيها الحركة الليلة السابقة. آدم تبعها على مسافة مترين، حركاته هادئة وواثقة، كمن اعتاد البحر لا كسائح.

بعد دقائق، ظهروا.

ليس أربعة فقط.

سبعة بالغين، وثلاثة صغار يسبحون قريباً من أمهاتهم. الأحجام متفاوتة، لكن اللمعة الفضية في العيون كانت واحدة. الدرافيل الأكبر، الذي يحمل بقعة فاتحة باهتة خلف زعنفته، تقدم قليلاً ثم توقف.

داليا شعرت بقلبها ينقبض. لم تكن متأكدة إن كان هو نفسه... أو أحد أبنائه.

رفعت يدها مفتوحة كما فعلت ذات ليلة في الممر المغمور.

الكائن اقترب. لم يلمسها هذه المرة، لكنه دار حولها دائرة بطيئة كاملة، ثم أصدر سلسلة نقرات قصيرة منخفضة. الصغار اختبأوا خلف البالغين، فضوليين وخائفين في آن.

آدم بقي مكانه تماماً. لم يمد يده، لم يلتقط صوراً، فقط راقب من مسافة محترمة. حين نظر أحد الدرافيل الأصغر نحوه، أدار آدم رأسه ببطء إلى الجانب، كاشفاً عنقه في إشارة لا واعية للاستسلام.

بعد عشر دقائق، انسحب القطيع تدريجياً نحو العمق، تاركين خلفهم تياراً خفيفاً من الفقاعات.

صعدا إلى السطح ببطء.

على القارب، خلعا الخوذات وجلسا مقابل بعضهما. الماء ما زال يقطر من شعرهما.

آدم تكلم أولاً، صوته هادئ:

ـ لم أرَ شيئاً مثلهم من قبل. الذكاء واضح في طريقة حركتهم. والصغار... يعني أنهم استقروا بما يكفي للتكاثر.

داليا مسحت وجهها بيديها.

ـ هم يتذكرون. حتى الجيل الجديد يبدو أنه يحمل شيئاً من الذاكرة.

ـ هل تذهبين إليهم كثيراً؟

ـ كلما استطعت. في البداية كنتُ أراقب فقط من بعيد. ثم بدأت أقترب. هم لا يهاجمونني. لكنهم لا ينسون أيضاً.

آدم أخرج من حقيبته المضادة للماء دفتراً صغيراً مغلقاً بإحكام وقلم رصاص. فتح صفحة مليئة برسوم وخرائط يدوية.

ـ هذه المناطق التي رصدتُ فيها نشاطاً غير طبيعي خلال العام الماضي. هنا تعافت الشعاب بنسبة ملحوظة. هنا ظهرت أسماك كانت اختفت من السجلات منذ عشرين سنة. وهنا... بدأت أشجار المانجروف تنمو مجدداً على أطراف الخيران.

وضع الدفتر بينه وبينها.

ـ المجلس يعرف بعض هذا. لذلك زادوا الدوريات في الشمال والجنوب. هم يخافون أن تنتشر الفكرة: أن البحر يمكنه أن يرفض، وأن الحياة يمكنها أن تعود إذا تُركت وشأنها.

داليا قلبت الصفحات ببطء. الخط كان واضحاً، والملاحظات دقيقة. لم يكن هاوياً.

ـ لماذا تساعدني حقاً؟ سألته فجأة. ـ لستُ رمزًا ولا قائدة حركة. أنا فقط امرأة فقدت أباها وصارت تحمل غضباً لا تعرف ماذا تفعل به.

آدم رفع عينيه إليها.

ـ لأن أبي مات وهو يحاول أن يقول للناس إن الثمن الذي ندفعه مقابل «الغذاء الرخيص» أكبر مما نظن. ولأنني رأيت تقارير عما حدث في مجمع البيروني قبل أن تُطمس. ولأنكِ لم تستسلمي للرواية الرسمية.

صمت قليلاً، ثم أضاف:

ـ ولأنني حين رأيتكِ البارحة على القارب، عرفتُ أنكِ ما زلتِ تحاربين. حتى لو كنتِ تحاربين وحدكِ.

داليا أغلقت الدفتر وأعادته إليه.

ـ الحرب طويلة. والمجلس لا يرحم من يقف في طريقه.

ـ أعرف.

ـ وإذا قررتَ البقاء... فقد تصل إلى يوم تفقد فيه أكثر مما تتحمل.

آدم نظر إلى الماء حيث اختفى القطيع.

ـ أنا فقدتُ بالفعل. الباقي... أختار أن أخاطر به.

هبوب رياح خفيفة حرّك سطح البحر وجعل القاربين يتمايلان برفق.

داليا أخيراً مدت يدها.

ـ حسناً يا آدم وليد. نبدأ من هنا. لكن القواعد واضحة: هم أولاً. البحر أولاً. أي قرار يمسّهم يمر عبري.

آدم صافحها. يده كانت خشنة ودافئة.

ـ موافق.

تحت السطح، بعيداً عن الأعين، كانت الظلال الداكنة ما تزال قريبة.

تراقب.

وتنتظر لترى إن كان هذا الإنسان الجديد يستحق الثقة... أم أنه مجرد بشر آخر سيخذلهم في النهاية.

**الفصل السادس والعشرون**

**مناطق السيادة**

بعد أسبوع من لقائهما الأول تحت السطح، عادا إلى المنطقة نفسها في ساعة الفجر.

القارب الصغير الذي اشتراه آدم كان أقدم من قاربه السابق، محركه يهمس أكثر مما يزمجر، وهيكلُه مطلي بلون رمادي باهت يذوب في ضباب الصباح. داليا جلست في المقدمة، تراجع خرائط آدم اليدوية مرة أخيرة. الخطوط التي رسمها بالقلم الرصاص صارت الآن أوضح في ذهنها: ثلاث مناطق رئيسية على امتداد الساحل الجنوبي، بعيدة عن طرق الشحن القديمة، محاطة بشعاب كانت قبل سنوات بيضاء وميتة.

ـ هل أنتِ متأكدة أنهم سيسمحون لنا بالاقتراب أكثر هذه المرة؟ سأل آدم وهو يطفئ المحرك قبل أن يصلوا إلى النقطة المحددة.

داليا لم ترفع رأسها عن الخريطة.

ـ هم يقررون المسافة. نحن فقط نصل إلى الحافة وننتظر.

ارتديا البذلتين في صمت. هذه المرة حمل آدم كاميرا صغيرة مقاومة للضغط، لكنها لم تكن للتصوير العشوائي. داليا اشترطت أن تكون العدسة موجهة إلى الشعاب والأسماك فقط، لا إلى العيون الفضية.

نزلوا.

الماء في هذه المنطقة كان أصفى مما رأته داليا منذ سنوات المجمع. الضوء ينزل في أعمدة ذهبية مائلة، والقاع على عمق ثمانية عشر متراً يبدو كحديقة أعيد زرعها بعناية. الطحالب الخضراء الداكنة تغطي الصخور التي كانت عارية، ومستعمرات المرجان الصغيرة بدأت تستعيد ألوانها الوردية والبرتقالية على أطراف الشعاب الميتة القديمة.

ثم ظهرت الأسماك.

مدارس كثيفة من أسماك لم تُرَ في السجلات الرسمية منذ عقدين: أنواع صغيرة فضية تتحرك كسحابة واحدة، وأسماك أكبر ذات ألوان زاهية كانت تُعتبر منقرضة محلياً. كانت تسبح بحرية، دون الخوف المعتاد من ظلال القوارب أو الشباك.

داليا توقفت فوق شعبة كبيرة، وتركت جسدها يطفو. آدم بقي على مسافة متر ونصف، يحترم الحدود التي وضعتها.

بعد دقائق، جاءت الظلال.

ليس سبعة هذه المرة. اثني عشر بالغاً على الأقل، وستة صغار يتحركون بينهم بثقة أكبر من المرة السابقة. الدرافيل الأكبر، الذي يحمل البقعة الباهتة خلف الزعنفة، تقدم أولاً. دار حول داليا دائرة واسعة بطيئة، ثم اقترب حتى صار على بُعد ذراع. العين الفضية ثبتت عليها لحظة طويلة، كأنها تراجع قراراً قديماً.

رفعت داليا يدها المفتوحة كما فعلت دائماً.

هذه المرة لم يلمسها. أصدر سلسلة نقرات منخفضة متقطعة، ثم ابتعد قليلاً وأشار بذيله نحو جهة الشرق. الباقون تحركوا في الاتجاه نفسه، تاركين ممراً واضحاً بينهما.

داليا نظرت إلى آدم عبر الخوذة وأومأت.

تبعوهما.

السباحة استغرقت ربع ساعة. القاع بدأ يرتفع تدريجياً، والماء يصير أفتح. ثم ظهرا أمامهما شيء لم تتوقعه داليا بهذه السرعة: غابة مانجروف صغيرة تنمو على حافة خليج ضحل محمي بالشعاب من ثلاث جهات. الجذور الهوائية تغوص في الماء العذب المختلط، والأوراق الخضراء الكثيفة تهتز مع النسيم القادم من اليابسة. طيور بيضاء صغيرة تقف على الأغصان، وأسماك صغيرة تسبح بين الجذور كأنها في موطنها منذ الأزل.

آدم توقف مذهولاً. رفع الكاميرا ببطء، ثم أنزلها دون أن يضغط على الزر. نظر إلى داليا، وعيناه تقولان ما لم يقله لسانه بعد: هذا ليس مجرد تعافٍ. هذا استعادة.

الدرافيل لم يدخلوا المياه الضحلة. توقفوا عند الحافة العميقة، يراقبون. واحد من الصغار حاول الاقتراب أكثر، فأعادته أمه بضربة خفيفة من الزعنفة.

داليا سبحت حتى صارت فوق الجذور الأولى. مدت يدها ولمست ورقة مانجروف غاطسة. كانت حقيقية. حية. تنمو في مكان كان قبل ثلاث سنوات شاطئاً ميتاً مليئاً بالبلاستيك وبقايا الشباك.

همست داخل الخوذة، صوتها يصل إلى آدم عبر الجهاز المشترك:

ـ هم لا يحمون أنفسهم فقط. هم يعيدون بناء ما دُمّر.

آدم اقترب حتى صار بجانبها.

ـ التقارير السرية التي وصلتني الشهر الماضي تتحدث عن ثلاث مناطق مشابهة على الأقل. واحدة شمال مرسى علم، واثنتان أقرب إلى الحدود السودانية. المجلس يسميها «مناطق اضطراب بيئي». هم يعرفون، لكنهم لا يستطيعون التدخل علناً بعد.

في تلك اللحظة سمعوا الصوت.

همهمة محرك بعيد، منتظمة، تقترب من جهة الشمال. ليست قارب صيادين. التردد أعلى، والطنين يحمل نبرة معدنية مألوفة لداليا من أيام المجمع.

الدرافيل تحركوا فوراً. الصغار اختفوا بين الشعاب، والبالغون شكلوا خطاً دفاعياً غير مرئي بين القادمين وبين الغابة الصغيرة. الدرافيل ذو البقعة رفع رأسه نحو السطح، ثم أصدر نداءً حاداً قصيراً.

داليا أمسكت ذراع آدم.

ـ اصعد. الآن.

صعدا بسرعة محسوبة، دون فقاعات كثيرة. على السطح، أبقيا رأسيهما منخفضين خلف جانب القارب. بعد دقيقتين ظهرت الدورية: زورق أسود متوسط الحجم، يحمل شعار مجلس الغذاء العالمي باهتاً على جانبه، وكشافات مغلقة، وهوائيات استشعار تدور ببطء.

الزورق مرّ على بعد ثلاثمئة متر تقريباً، دون أن يبطئ. الكشافات لم تُضأ. بعد أن ابتعد، انتظرا عشر دقائق إضافية قبل أن يشغّل آدم المحرك بأقل سرعة ممكنة.

على القارب، خلعا الخوذات. شعر داليا كان ملتصقاً بوجهها، ويداها ترتجفان خفيفاً من البرد أو من شيء آخر.

آدم تكلم أولاً، صوته منخفض:

ـ كانوا يمسحون المنطقة. أجهزة الاستشعار الحراري عندهم قديمة، لكنها تلتقط التجمعات الكبيرة. إذا استمر التكاثر بهذا المعدل... لن يستطيعوا تجاهلهم إلى الأبد.

داليا نظرت إلى الأفق حيث اختفى الزورق.

ـ لن يتجاهلوهم. سيحاولون إنشاء مجمعات جديدة في أماكن أبعد، أو استخدام تقنيات أكثر هدوءاً. السموم البطيئة، أو الفيروسات المعدلة، أو ببساطة شراء الصمت بالمال.

آدم أخرج الدفتر من الحقيبة المقاومة للماء وكتب بسرعة بضع كلمات، ثم رفع عينيه إليها.

ـ إذن نوثق. كل منطقة، كل نوع يعود، كل تغيير في التيارات أو في كثافة الأسماك. نبني خريطة لا يستطيعون محوها بسهولة. وإذا اقتربوا أكثر... نكون جاهزين لنقل الأدلة إلى من ما زال يسمع خارج دوائر المجلس.

داليا ظلت صامتة لحظة طويلة. الريح حركت سطح البحر وجعلت القارب يتمايل برفق. في الأسفل، كانت الظلال الداكنة ما تزال قريبة، تتحرك في دوائر بطيئة كأنها تحرس الغابة الجديدة.

أخيراً قالت:

ـ هم أولاً. أي قرار يمسّهم يمر عبرهم هم أيضاً، لا عبرنا فقط. هل ما زلت موافقاً؟

آدم أومأ دون تردد.

ـ موافق.

داليا نظرت مرة أخيرة نحو المكان الذي تنمو فيه أشجار المانجروف. الأوراق كانت تلمع تحت الشمس المنخفضة كأنها لم تعرف الموت من قبل.

همست، أكثر لنفسها هذه المرة:

ـ الطبيعة لا تنتقم فقط. هي تتذكر كيف كانت... وتعود.

ثم أدارت وجهها نحو آدم، وعيناها تحملان الهدوء الصلب نفسه الذي ظهر فيها يوم أغلقت عيني أبيها في الممر المغمور.

ـ غداً نذهب إلى المنطقة الثانية. وأحضر معك معدات تسجيل صوتية أفضل. أريد أن أسمع نداءاتهم من مسافة أقرب.

آدم ابتسم ابتسامة صغيرة هذه المرة، بلا حذر زائد.

ـ سيكون جاهزاً.

تحت السطح، بعيداً عن أعين الدوريات، رفع أحد الدرافيل رأسه نحو القارب للحظة قصيرة. العين الفضية لمعت مرة واحدة في العمق، ثم اختفت.

كأنهُ يوافق.

أو كأنهُ ينتظر الخطوة التالية.

**الفصل السابع والعشرون**

**الخط الثاني**

في الليلة السابقة لرحيلهما إلى المنطقة الثانية، جلسا على سطح القارب تحت سماء خالية من القمر.

آدم كان يراجع التسجيلات الصوتية التي التقطها في الغوص السابق، سماعات صغيرة في أذنيه، ووجهه مضاء بضوء الشاشة الخافت. داليا تجلس القرفصاء قرب المقدمة، تنظر إلى السواد المائي الذي يفصلهم عن الساحل.

ـ النداءات مختلفة هنا، قال آدم فجأة وهو يخلع السماعات. ـ أكثر تعقيداً. فيها طبقات. كأنهم لا يتحدثون عن الخطر فقط، بل عن المكان نفسه.

داليا أدارت رأسها نحوه.

ـ هم يرسمون حدوداً. كل منطقة لها صوتها.

صمت قليلاً، ثم أضاف آدم بصوت أهدأ:

ـ أبي كان يقول شيئاً مشابهاً عن الطيور المهاجرة. إنها لا تحفظ الطريق فقط، بل تحفظ الذاكرة الجماعية للطريق. ربما هؤلاء... يفعلون الشيء نفسه، لكن تحت الماء.

داليا لم تجب مباشرة. كانت تفكر في العين الفضية التي نظرت إليها عبر الزجاج قبل سنوات، وفي اللمسة الباردة في الممر المغمور، وفي النداء الذي أطلقته هي نفسها بعد موت أبيها.

هل كانوا يرسمون الحدود منذ ذلك اليوم؟ أم أن الحدود رُسمت لهم بالغريزة والذاكرة المعدّلة؟

عند الفجر انطلقا.

المنطقة الثانية كانت أبعد جنوباً، أقرب إلى الحدود، حيث التيارات أقوى والعمق يتغير بسرعة. احتاجا إلى ثلاث ساعات من الإبحار الهادئ، متجنبين الطرق المعتادة، ومتوقفين مرتين حين ظهرت على الرادار إشارة زورق دورية بعيد.

حين وصلوا إلى الإحداثيات التي حددها آدم، كان البحر يبدو عادياً من السطح. لكن السونار رسم صورة مختلفة: تجمعات كثيفة على عمق يتراوح بين اثني عشر وخمسة وعشرين متراً، وقيعان غير منتظمة تشير إلى شعاب جديدة النمو.

نزلوا.

هذه المرة كان الضوء أقسى، والتيار يسحب نحو الشرق. داليا سبحت في المقدمة، آدم خلفها مباشرة. بعد أقل من خمس دقائق ظهرا أمامهما.

ليس اثني عشر.

أكثر من عشرين بالغاً، وحوالي عشرة صغار في أعمار مختلفة. بعضهم يحمل بقعاً فاتحة جديدة على الجلد، كأن العلامات الوراثية بدأت تتنوع. الدرافيل الأكبر ذو البقعة القديمة لم يكن موجوداً هذه المرة. بدلاً منه تقدمت أنثى ضخمة، عينها الفضية تميل إلى الرمادي المزرق، وجسدها يحمل ندبة طويلة قديمة على الجانب الأيمن.

دارت حولهما مرتين، بطيئة ومحسوبة، ثم أصدرت سلسلة نقرات حادة قصيرة. الرد جاء من البقية كجوقة منخفضة.

ثم فتحت ممراً نحو الشمال الغربي.

تبعوهما.

السباحة كانت أطول. القاع ارتفع فجأة إلى هضبة مرجانية واسعة، معظمها لا يزال أبيض في الوسط، لكن أطرافه مغطاة بطبقات وردية وخضراء جديدة. وفوق الهضبة... كانت الحياة تفور.

مدارس أسماك لم تعد صغيرة فقط. أسماك أكبر حجماً، بعضها مفترس، تتحرك في دوائر واسعة دون أن تهاجم العشوائية المعتادة. قاع الهضبة مليء بثقوب وجحور، ومنها تخرج كائنات قاعية لم تُوثَّق في المنطقة منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً. وعلى الحافة الغربية، حيث يقترب القاع من السطح، امتدت غابة مانجروف أكبر من التي رأياها في المنطقة الأولى. الجذور متشابكة كشبكة حية، والأغصان تعلو فوق الماء حاملة أعشاشاً صغيرة.

آدم توقف فوق إحدى الشعاب وأشار بيده.

داليا اقتربت. تحت يدها مباشرة كانت مستعمرة مرجانية صغيرة تنمو فوق هيكل مرجاني ميت قديم، كأنها تكتب سطراً جديداً فوق سطر محذوف.

همس آدم عبر الجهاز:

ـ هذا أسرع من أي نموذج تعافٍ مسجل. الضغط البشري انخفض هنا بشكل شبه كامل منذ أقل من ثلاث سنوات. هم لا يمنعون الصيد فقط... هم يعيدون ترتيب السلسلة الغذائية.

في تلك اللحظة سمعت داليا الصوت الذي كانت تخشاه.

همهمة منخفضة منتظمة، أقرب هذه المرة. ليس زورق دورية عادياً. التردد أثقل، ويحمل طنين أجهزة سونار نشطة.

الدرافيل تحركوا كجسم واحد. الصغار سُحبوا إلى داخل الشعاب الكثيفة، والبالغون شكلوا ثلاث طبقات دفاعية: طبقة قريبة من الهضبة، وطبقة وسطى، وطبقة أمامية تواجه جهة الصوت.

الأنثى ذات الندبة رفعت رأسها نحو داليا وأصدرت نداءً حاداً واحداً.

المعنى كان واضحاً حتى بلا ترجمة: اختفوا.

داليا أمسكت ذراع آدم وسحبته نحو فجوة ضيقة بين صخرتين مرجانيتين كبيرتين. انحشرا داخل الظل، وقللا من التنفس إلى الحد الأدنى.

فوقهما، على السطح، مرّ الظل الأسود الطويل.

زورق أكبر هذه المرة، مجهز بذراع آلية مطوية وكشافات حرارية دوّارة. السونار كان يمسح القاع في أقواس بطيئة. مرت دقيقة. دقيقتان. ثلاث.

ثم توقف الزورق فوق الحافة الشرقية للهضبة.

صوت ميكانيكي خافت وصل إليهما عبر الماء: ذراع تنزل.

شيء لامع صغير انفصل منها وسقط ببطء نحو القاع. جهاز استشعار أو كاميرا لاسلكية.

قبل أن يلمس القاع بخمسة أمتار، ظهر أحد الدرافيل البالغين من تحت صخرة. لم يهاجم الجهاز. دفعه بزعنفته الصدرية بقوة محسوبة نحو التيار الجانبي، فأبعده عن الهضبة باتجاه المياه المفتوحة. ثم اختفى من جديد.

على السطح، انتظر الزورق دقيقة إضافية، ثم أعاد الذراع وتحرك ببطء نحو الشمال. لم يطلق أي إشارة إنذار.

بعد أن ابتعد تماماً، خرج الدرافيل من مخابئهم واحداً تلو الآخر. الأنثى ذات الندبة اقتربت من الفجوة التي يختبئان فيها، نظرت إليهما طويلاً، ثم أصدرت نداءً قصيراً منخفضاً كأنه إذن بالخروج.

صعدا بعد ربع ساعة من الحذر.

على القارب، كان آدم يتنفس بصعوبة أكثر من المعتاد. يده كانت ترتجف قليلاً وهو يمسح الماء عن وجهه.

ـ كانوا قريبين جداً، قال. ـ لو التقط السونار التجمع الكامل...

ـ لم يلتقطه، قاطعته داليا. ـ لأنهم يعرفون كيف يتفرقون ويختفون. الذاكرة لم تعد فردية فقط.

جلسا صامتين وقتاً. الشمس ارتفعت وصارت الحرارة تلسع الجلد المبلل. أخيراً أخرج آدم الدفتر وكتب بسرعة، ثم رفع عينيه.

ـ المنطقة الثانية أكبر وأكثر استقراراً. إذا كانت هناك منطقة ثالثة كما تشير الخرائط غير الرسمية... فهم يبنون شبكة. ليست مجرد ملاذات متفرقة.

داليا نظرت إلى الأفق الجنوبي، حيث يمتد البحر نحو مياه أعمق وأقل خضوعاً لأي رقابة.

ـ المجلس لن يصبر طويلاً على «اضطراب بيئي» بهذا الحجم. في المرة القادمة قد لا يرسلون زورقاً للمسح فقط.

آدم أغلق الدفتر.

ـ إذن نسرع التوثيق. وأبدأ في التواصل مع ثلاثة أشخاص أثق بهم خارج الدوائر الرسمية. باحثون مستقلون وصحفي واحد ما زال يرفض الرواية الرسمية لما حدث في البيروني. إذا جمعنا أدلة كافية من ثلاث مناطق... يصبح طمس الحقيقة أصعب.

داليا هزت رأسها ببطء.

ـ الأدلة وحدها لا تكفي. هم يأكلون الأدلة منذ سنوات. نحتاج شيئاً آخر.

ـ ماذا؟

نظرت إليه مباشرة، والبحر خلفها يلمع كأنه يسمع.

ـ نحتاج أن يتعلم الناس أن يروا ما يعود. لا كـ«اضطراب»، بل كحق. وأن يروا أن الثمن الذي دُفع تحت الماء لم يكن عبثاً.

صمت آدم لحظة، ثم أومأ.

ـ سأعمل على ذلك. وأنتِ؟

داليا ابتسمت ابتسامة صغيرة جافة، الأولى منذ أيام.

ـ أنا سأعود إليهم غداً في المنطقة الأولى. وحدي هذه المرة. أحتاج أن أسمع النداء من مسافة أقرب... وأحتاج أن أفهم إن كانوا ما زالوا يرون فرقاً بين من يفتح الباب ومن يقف خلفه.

آدم لم يعترض. فقط مدّ يده ووضعها لحظة قصيرة على حافة القارب قرب يدها، دون أن يلمسها.

ـ سأنتظرك هنا. وإذا تأخرتِ...

ـ لن أتأخر، قالت. ـ هم لا يؤخرون من يأتون بلا سلاح.

تحت السطح، بعيداً عن القارب، كانت الأنثى ذات الندبة ما تزال قريبة.

رفعت رأسها مرة واحدة نحو الضوء، وأصدرت نداءً طويلاً منخفضاً تردد في العمق كأنه وعد أو تحذير أو الاثنان معاً.

ثم ابتعدت نحو الجنوب، حيث الخط الثالث ينتظر أن يُرسم.

**الفصل الثامن والعشرون**

**النداء القريب**

في الصباح التالي خرجت داليا وحدها.

آدم لم يعترض هذه المرة. وقف على سطح القارب يشاهدها وهي ترتدي البذلة، يراجع جهاز الاتصال مرتين، ثم يسلمها عوامة صغيرة إضافية وحزمة طوارئ خفيفة. لم يقل «كوني حذرة». قال فقط:

ـ التردد مفتوح. إذا تأخرتِ أكثر من تسعين دقيقة... آتي.

داليا أومأت، ثم انزلقت في الماء دون أن تنظر خلفها.

المنطقة الأولى كانت هادئة في هذا الوقت. التيار خفيف، والضوء ينزل ناعماً عبر الطبقات العليا. سبحت بالسرعة التي اعتادتها منذ الطفولة، جسدها يشق الماء كأنه جزء منه. بعد اثنتي عشرة دقيقة وصلت إلى حافة غابة المانجروف الصغيرة.

انتظرت.

لم تظهر الظلال فوراً. مرت دقيقتان، ثم ثلاث. ثم جاءت من العمق الجنوبي ك genug واحد متماسك. ثمانية بالغين هذه المرة، وأربعة صغار. الدرافيل ذو البقعة الباهتة كان بينهم. تقدم أمام الباقين حتى صار على بعد أقل من مترين منها.

رفعت داليا يديها مفتوحتين، فارغتين، كما فعلت دائماً.

هذه المرة لم يدر حولها. توقف مباشرة أمام وجهها. العين الفضية كانت أقرب مما ينبغي، وفيها انعكاس ضوء الشمس المتكسر على سطح الماء فوقهما. أصدر سلسلة نقرات سريعة منخفضة، ثم صوتاً أطول يشبه الزفير المكتوم.

الذبذبات وصلت إلى عظام صدرها عبر الماء.

داليا أغلقت عينيها لحظة.

تذكرت ندى. تذكرت الدم الخفيف في الماء قبل سنوات طويلة. تذكرت صوت السكين، ووجه أبيها وهو يقول «هم ليسوا مثلنا». ثم تذكرت النداء الذي أطلقته هي نفسها في الممر المغمور بعد أن أغلقت عينيه.

فتحت عينيها.

الدرافيل ما زال مكانه. رفع زعنفته الصدرية ببطء ولامس طرف أصابعها عبر القفاز الرقيق. اللمسة كانت باردة وواعية وأطول من أي لمسة سابقة.

همست داخل الخوذة، صوتها يتحول إلى ذبذبات ضعيفة عبر الجهاز الصغير على حزامها:

ـ أنا أسمع. لكنني لا أفهم الكلمات بعد. فقط... الوزن.

الدرافيل أصدر الصوت نفسه مرة أخرى، أقصر هذه المرة، ثم ابتعد نصف متر وأشار بذيله نحو جهة أعمق قليلاً داخل الشعاب. تبعته. الباقون فتحوا ممراً ضيقاً وتركوهما يمران.

بعد أقل من دقيقة توقفا فوق فجوة مظلمة بين صخرتين. داخل الفجوة، على عمق إضافي مترين، كان هناك شيء لا ينتمي إلى القاع الطبيعي: قطعة معدنية مستطيلة، متآكلة جزئياً، تحمل بقايا طلاء رمادي داكن ورقماً باهتاً لم يعد يُقرأ.

جزء من عربة نقل قديمة. أو بقايا معدات من أيام المجمع.

داليا شعرت بشيء ينقبض في حلقها.

الدرافيل لم ينظر إلى القطعة. نظر إليها هي. كأنه يقول: نحن لم ننسَ من أين بدأ كل شيء. ولا أين انتهى.

مدت يدها نحو المعدن، ثم سحبتها. لم تلمسه.

همست:

ـ هو مات هنا تقريباً. ليس في هذا المكان بالضبط، لكن في الماء نفسه. بسببي وبسببه وبسببهم.

الدرافيل أصدر نداءً طويلاً منخفضاً هذه المرة. الرد جاء من البقية كصدى متباعد. ثم اقترب من جديد حتى لامس جبين خوذتها بجبهته لحظة قصيرة جداً، كما فعل ذلك اليوم قبل سنوات حين انسحبوا أول مرة.

بعدها ابتعد.

الصغار خرجوا من بين الشعاب ونظروا إليها بفضول حذر، ثم اختفوا مع أمهاتهم نحو العمق. بقي الدرافيل ذو البقعة وحده لحظة إضافية، ثم استدار وسبح جنوباً ببطء، تاركاً وراءه تياراً خفيفاً من الفقاعات.

داليا بقيت مكانها وقتاً أطول مما خططت.

الماء حولها كان صافياً وهادئاً، والغابة الصغيرة تهتز مع النسيم القادم من السطح. شعرت أن شيئاً قد انتقل. ليس فهماً كاملاً، لكن اعترافاً متبادلاً: هي ما زالت تحمل الغضب والذاكرة، وهم كذلك. والحدود التي يرسمونها ليست ضدها.

صعدت بعد اثنين وثمانين دقيقة.

آدم كان ينتظر على السطح، وجهه مشدوداً من التوتر. حين رآها يخرج رأسها أرخى كتفيه فجأة.

ـ تأخرتِ دقيقتين فقط عن الحد، قال بصوت مبحوح من الارتياح. ـ ماذا حدث؟

داليا خلعت الخوذة وجلست على حافة القارب، الماء ينزل من شعرها على الخشب القديم.

ـ أروني شيئاً من الماضي. قطعة معدنية من أيام المجمع. مدفونة هناك كأنها شاهد قبر.

آدم صمت. ثم قال بهدوء:

ـ هم لا ينسون.

ـ لا. ولا أنا.

بعد أن استراحت قليلاً وأعادت الحرارة إلى أصابعها، أخرج آدم جهازاً لوحياً صغيراً مشفراً وأدار الشاشة نحوها.

ـ وصلتني رسالة أثناء غيابكِ. من أحد الأشخاص الثلاثة الذين تواصلت معهم. باحثة مستقلة في الإسكندرية. تقول إن المجلس بدأ تحريك معدات ثقيلة نحو الساحل السوداني الشمالي. ليس زوارق مسح هذه المرة. وحدات أكبر. وهناك حديث داخلي عن «إعادة تأهيل مناطق الاضطراب» باستخدام تقنية جديدة... لم يحددها المصدر بعد.

داليا نظرت إلى الشاشة، ثم إلى الأفق الجنوبي.

ـ هم يستعدون للخطوة التالية.

ـ نعم. وأنا أيضاً. نقلتُ جزءاً من التسجيلات والصور إلى الصحفي. بتحفظ شديد. إذا تحركت الوحدات علناً... سنكون جاهزين لنشر ما يكفي لجعل الرواية الرسمية ترتجف على الأقل.

داليا أغلقت اللوح بيدها.

ـ النشر مهم. لكن الأهم أن نصل إلى المنطقة الثالثة قبلهم. إذا كانت موجودة فعلاً، وإذا كانت أكبر... فالدفاع الحقيقي يبدأ من هناك.

آدم أومأ.

ـ الخرائط تشير إلى إحداثيات أبعد جنوباً، قرب شعاب لم تُمسح جيداً منذ عقد. نحتاج يومين من الإبحار الحذر، وتوقفاً ليلياً في خليج مهجور أعرفه.

داليا نظرت إلى يديها. الجلد حول الأظافر ما زال مجعداً من الماء، والجرح القديم في راحة يدها يلمع أبيض تحت الشمس.

ـ غداً ننطلق. الليلة أحتاج أن أكتب ما رأيته. كل تفصيلة. كل نداء. قبل أن يحاول أحد محو الذاكرة من جديد.

آدم لم يسأل ماذا ستكتب بالضبط. فقط أدار المحرك على أقل سرعة وبدأ يعود بهما نحو المرسى المؤقت الذي اختاراه بعيداً عن الأعين.

تحت السطح، في المنطقة التي غادرتها داليا للتو، وقف الدرافيل ذو البقعة فوق القطعة المعدنية المتآكلة لحظة طويلة.

ثم أصدر نداءً واحداً حاداً جداً، تردد في الشعاب وخرج نحو الجنوب كسهم غير مرئي.

النداء لم يكن تحذيراً فقط.

كان استدعاءً.

**الفصل التاسع والعشرون**

**ما تحت الجلد وما فوق الماء**

بدأ الأمر عملياً.

بعد أن قررا الإبحار جنوباً نحو المنطقة الثالثة، صار المبيت المنفصل رفاهية لا تحتملها السرية ولا الوقود. اختارا خليجاً صغيراً محاطاً بصخور سوداء عالية، بعيداً عن أي طريق دورية معروف. القارب يُسحب إلى الشاطئ الرملي الضيق ليلاً، وخيمة واحدة خفيفة تُنصب خلف الصخور مباشرة. فرشتان رفيعتان متجاورتان في البداية، ثم صارت فرشة واحدة واسعة حين ضاقت المساحة وازداد البرد ليلاً.

في الليالي الأولى ناما متباعدين قدر الإمكان. ظهر كل منهما إلى الآخر، والبطانية المشتركة تغطي ساقيهما فقط. الحديث كان عن الخرائط والتسجيلات وخطط المجلس. أحياناً عن أبيها، وأحياناً عن أبيه. ضحكات قصيرة نادرة، ثم صمت طويل يملؤه صوت الموج.

في الليلة الرابعة، حين هبت رياح باردة فجأة، اقتربت داليا دون أن تشعر. استيقظت عند الفجر ووجدت رأسها على كتف آدم، ويده مسترخية فوق بطنها دون قصد. سحبت جسدها ببطء، لكنه كان قد استيقظ أيضاً. نظر أحدهما إلى الآخر لحظة، ثم ابتسم آدم ابتسامة صغيرة محرجة.

ـ آسف.

ـ لا بأس، قالت. ـ البرد.

منذ تلك الليلة صارت المسافة أقل. ناما جنباً إلى جنب كأخوين أو رفيقي درب طويل. يدها أحياناً تلمس ذراعه في الظلام، أو تضع رأسها على صدره حين يشتد صوت الريح. لم يحدث أكثر من ذلك. كلاهما كان بتولاً، وكلاهما يحمل في داخله خوفاً قديماً من الاقتراب أكثر مما ينبغي.

لكن الجسد كان يتذكر ما لا يقوله اللسان.

في الليلة التاسعة، بعد يوم طويل من الإبحار والمراقبة، جلسا أمام نار صغيرة محمية من الريح. داليا كانت تحدق في اللهب، وشعرها الأسود القصير ما زال مبللاً من آخر غوص. آدم راقبها طويلاً قبل أن يتكلم.

ـ أنتِ من برج الحوت، أليس كذلك؟

رفعَت رأسها متفاجئة.

ـ كيف عرفت؟

ـ الطريقة التي تسبحين بها. كأن الماء جزء منكِ لا العكس. وأبي كان مهتماً بهذه الأشياء قديماً.

ابتسمت رغم التعب.

ـ وأنت؟

ـ العذراء. دقيق، صامت، ويخاف من الفوضى... إلا حين يجد شيئاً يستحق أن يفقد من أجله سيطرته.

الصمت هذه المرة كان مختلفاً. امتلأ بشيء دافئ وثقيل في آن.

داليا مدّت يدها ووضعتها فوق يده. لم تسحبها. آدم قلب كفه ببطء وشبك أصابعه بأصابعها. الجلد كان خشناً من العمل المالح، لكنه دافئ.

ـ أنا لم... قط، همست هي.

ـ ولا أنا، أجاب بصوت أجش.

نظرا إلى بعضهما طويلاً. ثم اقترب آدم أولاً. قبلتها على الجبين أولاً، ثم على الخد، ثم على زاوية الفم. داليا هي التي أكملت المسافة. قبلته بفم مفتوح قليلاً، ببطء في البداية، ثم بجوع مفاجئ كأن السمكة التي في داخلها أفاقت أخيراً.

انتقلا إلى داخل الخيمة دون كلام كثير. الفرشة الواحدة صارت ضيقة جداً فجأة. خلعا ملابسهما فوقية أولاً، ثم السفلية، مرتجفين من البرد ومن شيء آخر. جسدا العذراء والحوت تعرّيا تحت الضوء الخافت القادم من خارج الخيمة.

آدم كان نحيلاً لكن عضلاته مشدودة من سنوات الغوص والعمل. داليا كانت أكثر ليونة، بشرة فاتحة تحت السمرة البحرية، وثديان صغيران يرتجفان مع كل نفس. نظر أحدهما إلى عورة الآخر للمرة الأولى: هو منتصب بقوة مؤلمة تقريباً، وهي مبللة أكثر مما توقعت، الشفران منتفخان ولون الورد الداكن.

ـ إذا ندمتِ في أي لحظة... قال.

ـ لن أندم. وأنت؟

هز رأسه. ثم قبلها من جديد، أعمق هذه المرة. يداه تتحركان ببطء العذراء الدقيقة: تلمس ثدييها، تداعب الحلمتين حتى تصلبا، تنزل إلى بطنها، ثم إلى الشعر الأسود

الكثيف بين فخذيها. أصابعه وجدتها مفتوحة وجاهزة، تقطر على الفرشة. أدخل إصبعاً أولاً، ثم اثنين، يفتحها برفق وهو يراقب وجهها.

داليا كانت تئن بصوت منخفض متقطع، وركبتاها تنفتحان أوسع من تلقاء نفسيهما. هي التي أمسكت قضيبه بيدها المرتجفة وحرّكته صعوداً وهبوطاً، مستغربة من صلابته وحرارته. حين شعرت أنه يقترب من الحد، سحبته نحوها.

ـ الآن. أريدك داخلي الآن.

آدم تموضع فوقها. رأس قضيبه لامس فتحة بكارتها. دفع ببطء شديد في البداية. الألم كان حاداً وقصيراً. داليا عضّت شفتها وأظافرها غرست في كتفيه. حين اخترق الغشاء بالكامل وغرق حتى الجذر، توقف تماماً، يتنفس بصعوبة، جبينه على جبينها.

ـ هل أنتِ...؟

ـ أكمل، همست بصوت مبحوح. ـ لا تتوقف.

بدأ يتحرك. بطيء أولاً، عميق، محسوبة ككل شيء في برج العذراء. لكن داليا لم تتركه على إيقاعه. رفعت وركيها للقائه، لفّت ساقيها حول خصره، وطلبت منه سرعة أكبر بصوت لم تكن تعرفه في نفسها من قبل. صارت تتحرك تحته كسمكة في تيار قوي: متموجة، رطبة، لا تعرف الخجل فجأة. صوت ارتطام الجلد بالجلد اختلط بأنينها المتقطع وبتنفسه الثقيل.

ـ أعمق... نعم هكذا... لا تخرج...

آدم فقد دقته تدريجياً. صار يطعنها بقوة متزايدة، يمسك بفخذيها ويفتحهما أكثر، يراقب كيف يبتلعها قضيبه حتى الكيس في كل مرة. داليا وصلت أولاً. ارتعش جسدها كله، عضلاتها الداخلية تنقبض حوله بعنف متكرر، وصوتها ارتفع في نداء طويل مكسور قبل أن تدفن وجهها في عنقه. الحرارة التي سالت منه وهو يندفع خلفها بعد ثوانٍ كانت كافية لتملأها حتى الفيض. ظل داخلها حتى خمد تماماً، ثم انسحب ببطء مخلفاً خيطاً أبيض يختلط بدم بكارتها على الفخذين والفرشة.

ظلا ملتصقين وقتاً طويلاً بعد ذلك، يتنفسان معاً، العرق المالح يلمع على جلديهما. داليا رسمت دائرة بطيئة بإصبعها على صدره.

ـ لم أكن أعرف أن الأمر... بهذا الشكل.

آدم قبّل أعلى رأسها.

ـ ولا أنا.

في الصباح التالي نزلوا معاً إلى الماء دون أن يتكلما كثيراً عن الليلة. لكن أجسادهما كانت ما تزال تحمل أثر الآخر: طريقة لمس آدم ليدها وهي تساعده على ربط الخوذة، والطريقة التي اقتربت بها داليا منه أكثر من المعتاد تحت السطح.

عند الشعاب، ظهرت الدرافيل أسرع من أي مرة سابقة. الدرافيل ذو البقعة تقدم أولاً، دار حولهما مرتين بدل واحدة، ثم اقترب حتى لامس بزعنفته صدر داليا وصدر آدم في حركة واحدة متتالية. أصدر سلسلة نقرات سريعة عالية النبرة، مختلفة عن نداءات التحذير أو الاستدعاء. الباقون ردوا بجوقة قصيرة مرتفعة، ثم اقترب اثنان من الصغار ونفثا فقاعات كبيرة أمام وجهيهما كأنهما يلعبان.

داليا نظرت إلى آدم عبر الخوذة وابتسمت للمرة الأولى منذ أن خرجا من الخيمة.

همست عبر الجهاز، صوتها ما زال يحمل بحة الليلة السابقة:

ـ هم يعرفون.

آدم مدّ يده وأمسك يدها تحت الماء.

ـ ويبدو أنهم... يهنئوننا.

الدرافيل ذو البقعة أصدر النداء نفسه مرة أخيرة، أعلى قليلاً، ثم ابتعد تاركاً بينهما ممراً واسعاً نحو العمق، كأنه يفتح لهما طريقاً جديداً.

تحت السطح، حيث لا يصل ضوء الشمس كاملاً، كان الحب الجديد يشتعل بهدوء مالح.

والدرافيل، التي تتذكر كل شيء، كانت قد شعرت به قبل أن يسميه أحد باسمه.